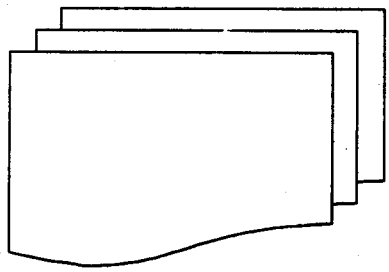

البديع عند الإمام عبد القاهر
بين النظرية والتطبيق

إعداد

د/ ناصر راضي الزهري إبراهيم

المدرس في قسم البلاغة والنقد

١٤٣٠هـ ٢٠٠٩ م

لجنة التحكيم

أ.د/ فريد محمد بدوى السنكلاوى	عضو اللجنة العلمية الدائمة
أ.د/أحمد عبد الجواد محمد عكاشة	عضو اللجنة العلمية المحكمة

المقدمة

الحمد، وكفى وسلاماً على عباده الذين اصطفى، وعلى سيدنا محمد ﷺ وآله، وصحبه، وسلم، وبعد

فقد فرغ الباحثون في البلاغة من أن الذي دعا إليها أولاً هو القرآن الكريم، أو الرغبة الملحة عند المسلمين في تقديره على أنه المعجزة التي صحَّت بها نبوة الرسول العظيم ﷺ يقول عمرو بن عبيد في القرآن الثاني الهجري (إن معرفة البلاغة صار أمراً يتصل بالدين) وأصبح أهل الجدل والأصول، والفقه، والتفسير، وغيرهم من المشتغلين بالخطابة، والشعر، والرواية يعنون بالبحث في البلاغة، وراحت كل طائفة منهم تطل عليها من نافذة غير نافذة الأخرى، وتتأثر بها، أو تؤثر فيها بطريقة غير طريقتها، وكان من الأهداف التى يرمي إليها كل أولئك من درس البلاغة معرفة الكلام الجيد، وكيفية تعاطي فنون القول، والرغبة في دقة الفهم للقرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب البلغاء [1].

وعلم البديع من العلوم التي دار حولها كثير من الجدل بين مؤيد له يرى أنه ساحة المفاضلة، ومحك التفوق، مغالين في تقديمه على غيره، مسرفين في استخدامه إلى درجة أضرَّت به كفن..وبين معارض يرى أنه علم تزيين لظاهر اللفظ ليس له كبير فائدة صارت أبوابه من الحُلى اللفظية التي ليس لها تأثير على المعنى مهاجمين من كلفوا بهذا الفن، ومعارضين لمن عدوه علماً قائماً بذاته بل ضموا بعض أبوابه إلى أخويه البيان، والمعاني ..

والحقيقة أن هذا الجدل الذي دار حول البديع من تأييد، ومعاضدة، أو إنكار، ومعارضة يرجع إلى عدة أسباب بعضها يرجع إلى البديع في الصورة التي تحددت قبل عصر الإمام عبد القاهر وفي أثنائه منها :

١- التأثير القوي لألوان البديع في استمالة المخاطبين لاعتماد كثير من ألوانه على الناحية الصوتية في التأثير فى المخاطب، ولا شك أن التأثير فى المخاطبين من أهم الأمور التي يسعى إليها الشاعر

---

(١) ينظر مقدمة روضة الفصاحة لأبي منصور الثعالبي ص:٥ ت: محمد إبراهيم سليم - مكتبة القرآن .

بشعره، والناثر بنثره بل إن المتكلم الذي لا يعنيه فن القول في الخطاب الساذج يسعى إلى تحقيق ذلك لإقناع من يخاطبه بما يريد .

٢- أثر ألوان البديع في تيسير الحفظ، وسهولة النقل، وتحقيق الزيوع، والانتشار قال الجاحظ (قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي، وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني أريد الغائب، والحاضر، والراهن، والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره) ([1])

٣- ذم الرسول ﷺ للمتكلفين في بعض ألوانه (السجع) وذم التقعر، والتفاصح في الكلام بغرض ادعاء القدرة البيانية، وإبطال الحق، وإحقاق الباطل، وكان العلماء في قمة الحرص على كل توجيه يصدر منه - ﷺ - لقربهم - نوعاً ما- من عصر النبوة.

٤- تشعب طرق البديع، وكثرة ألوانه مما زاد من كلف الشعراء، والكُتَّاب به رغبة في استعراض المهارات البيانية، وتحقيق المكاسب الأدبية بالانفراد بجديد في العرض أو الاختراع .

٥- خفاء أكثر ألوانه، وطرافتها التي حالت دون تحديد معالمه في أثناء ثورة التأليف في علوم البلاغة حتى أن ابن المعتز - وهو من هو في البديع - يقول عن البلاغة العربية بعد أن ذكر ما استطاع من ألوان البديع : (ومحاسنها لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن عمله وذكره)[٢]

٦- تسابق الكتاب والشعراء إليه وتفننهم في تتبع ألوانه وتفريعاته على وجه لم يوجد عند شعراء الجاهلية، وخطبائها، وهم المقياس عند كثير من النقاد .

---

(١) البيان والتبيين /المؤلف : أبي عثمان عمرو بن بحر / ١٥٣/١/ تحقيق : المحامي فوزي عطوي / الطبعة الأولى، ١٩٦٨الناشر : دار صعب - بيروت .

(٢) البديع لابن المعتز / ص : ٥٨ .

٧- ضعف الملكات اللغوية بدخول غير العرب الإسلام، وممارستهم للغة، والأدب، ورغبة بعضهم في المشاركة في الحركة العلمية، والثقافية مع ضعف ملكاتهم، وحسهم اللغوي مما جعلهم يميلون إلى التكلف،والإسراف في الحلى اللفظية لجذب الأسماع، واستمالة القلوب.

٨- قوة الحركة الأدبية، والنقدية التي أشعلت روح المنافسة بين الأدباء، والشعراء مما دفع كثيراً منهم إلى التفنن في اختراع الألوان البديعية، واستخدامها لتحقيق سبق أدبي، أو تفوق نقدي.

وقد أدت هذه الأسباب إلى اختلاف وجهات النظر حول فنون البديع، ونتج عن ذلك عدة اتجاهات ما بين الإفراط في ألوان البديع إلى حد الإسراف، وبين المعارضة ممن يرى أنه علم تزيين ولا يرى له قيمة، وبين معتدل النظرة الذي يرى لعلم البديع ما له، وما عليه، وأن ما لحقه من الضيم ليس من ذاته بل من سوء الاستخدام، والإسراف، وعدم الإحاطة بطبيعة فنونه وأثرها، ومن أصحاب هذا الاتجاه، وأبرزهم الإمام عبد القاهر الجرجاني النحوي البلاغي المحقق المنصف صاحب الفطرة السليمة، والنظر الثاقب والرأي الصائب (١).

---

(١)ينظر ترجمة الإمام عبد القاهر في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي / ٢/ ١٤٨/ ت : مصطفى عبد القادر عطا / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي / ٢ / ١٠٦ / ت : محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الثانية / ١٣٩٩هـ ١٩٧٩ م . والأعلام للزركلي / ٤/ ٤٨ / الطبعة الثانية عشرة / دار العلم للملايين – بيروت – ١٤٢٢هـ ١٩٩٧م . ومقدمة كتاب الجمل في النحو لعبد القاهر الجرجاني / صـ ٧ فما بعدها / ت : يسري عبد الغني عبد الله / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م . وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة /١/ ٢٥٢ / ت : د الحافظ عبد العليم خان، و د / عبد الله أنيس الطباع / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م . وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي /٣ / ٣٤٠ / دار الكتب العلمية – بيروت .والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي / ٥/ ١٠٨ / ت : محمد حسين شمس الدين / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م . وفوت الوفيات لابن شاكر الكتبي / ١ / ٧٠٠ / ت : علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية بيروت / ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ م . ومرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي /٣/ ١٠١ / الطبعة الثانية / دار الكتاب الإسلامي / ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

وقد دارت حول الإمام دراسات كثيرة تنوعت كماً، وكيفاً تعرَّض بعضها لتراثه النحوي، وبعضها لتراثه النقدي، وبعضها لتراثه البلاغي في مختلف علوم البلاغة، ومنها البديع، ولكن في إطار الحديث عن قضايا بلاغية أخرى كقضية النظم، وغيرها، أو في أثناء الحديث عن تاريخ البديع عامة، ولم أقف على دراسة خاصة عن البديع من هذا الجانب الذي يتناوله هذا البحث حيث إنه يلقي الضوء على البديع عند الإمام من جانبيه النظري، والتطبيقي ففي الجانب النظري تعرض الدراسة لألوان البديع التي تحدَّث عنها الإمام، وغرضه منها، وبيان خصائصها، ونظرته إليها، وموقفه منها .

كما تهدف الدراسة إلى بيان أصول البحث عند الإمام في فنون البديع خاصة، وأصول البحث في فنون القول عامة التي أشار إليها، واستخدمها للوصول إلى ما قرر من القواعد في معالجته لفنون القول بين النقد الأدبي، والإبداع الفني الذي بدا في أسلوبه من الناحية النظرية، والعملية .

في محاولة لاستخلاص قاعدة كلية خلال ذلك تعبِّر عن وجهة نظر الإمام في تعاطي فنون البديع، والمقاييس الفنية لجودة البديع التي تحدَّث عنها الإمام ؟

كما نعرض في أثناء ذلك إلى حال البديع قبل الإمام عبد القاهر، وخاصة في العصر الجاهلي وما يمتاز به من خصائص، وما وصل إليه في عصر الإمام عبد القاهر، والصورة التي استقر عليها عنده .

أما الجانب التطبيقي فلا تهدف الدراسة فيه إلى حصر ألوان البديع التي استخدمها الإمام في أساليبه، وإنما تهدف إلى الوصول إلى مقاييس الجودة الفنية في معالجته العملية لألوان البديع مع المقارنة بين حديث الإمام عن فنون البديع، وبين تطبيقه الفعلي لها في أساليبه مع الرد على بعض الاعتراضات على أسلوب الإمام، فهو من أهل الذوق، والمعرفة بأسرار العربية مع إخلاص شديد لله في دروب العلم يبعثه لخدمة دينه ما وجد لذلك سبيلاً، بدا ذلك في أساليبه كما بدا في نظرياته قال الشيخ رشيد رضا : أن عبد القاهر من البلغاء الذين جمعوا بين العلم والعمل (١).

---

(١) ينظر مقدمة أسرار البلاغة للشيخ رشيد رضا

ومما يؤكد انطلاق الإمام عبد القاهر في دروب العلم من وازع ديني (أن وجه إعجاز القرآن الكريم لم يكن غاية في أصله عنده، وإنما كان وسيلة لغاية، وهذه الوسيلة هي من لغة العرب، ومن طرائقهم، وما تعارفوا عليه من أساليب، وتراكيب، والغاية هي فهم القرآن الكريم، ومراد الله تعالى في سوره وآيه، حتى نقترب من أوامر الله –تعالى –، ونجتنب نواهيه .

وأن عبد القاهر شُغل في رسالته الشافية، وفي كتابيه الدلائل، والأسرار بالتعريف بهذه الوسيلة، وتبيان شروطها، وسعتها، وقدرتها، وسماتها، وخصائصها، وكان يقوم في كل ما تقدَّم بدور الناقد الذي يقدم الجهد، والتمييز، والاختيار، ثم يوجه إلى أفضل الوجوه، وهذا كله يصدر عن ذوق مدرب، وعلم منظم، وشفافية عالية .[1]

تأمل قول الإمام :(وجملةُ الأمر أنّه لا يَرى النّقص يدخلُ على صاحبِه في ذلك إلا من جهةِ نقصِه في علم اللُّغة لا يعلم أنَّ ها هُنا دقائقَ وأسراراً طريقُ العلمِ بها الرويَّةُ والفِكرُ ولطائفَ مُسْتقاها العَقلُ وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها وكُشفَ لهم عنها ورُفعت الحجبُ بينَهُم وبينَها وأنّها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ ووجَبَ أن يفضُل بعضُه بعضاً وأن يَبْعُدَ الشأوُ في ذلك وتمتَدُّ الغايةُ وَيعلوَ المُرتقَى ويَعِزَّ المَطلبُ حتّى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ وإلى أن يخرُجَ من طَوْقِ البَشر)[2].

ولا شك أن هذا الوازع الديني الذي انطلق الإمام منه كان أحد الأسباب الصارفة له عن كل علم ظاهره يدعو إلى الفخر الذي يُسْلِم صاحبه إلى الرياء، ومباهاة العلماء، أو مماراة السفهاء، أو صرف وجوه الناس إليه، لحديث النبي ﷺ :(مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ)[3].

---

(١) ينظر معالم المنهج البلاغي عند الإمام عبد القاهر / د : محمد بركات حمدي أبو علي / ٧٤/ طبعة دار الفكر عمان .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ٧/ ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م / مطبعة المدني بالقاهرة .

(٣) سنن ابن ماجه / (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني)/ ١ / ٩٣ / باب الانتفاع بالعلم والعمل به / حديث (٢٥٣) ت : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر : دار الفكر – بيروت .

وهو ما كان يلهث وراءه كثير من أهل صنعة البديع في زمانه، وهو ما جار على البديع كفن، وجعل كثيرا من أهل الورع، والذوق يعزفون عنه ولا يعرجون عليه بل إن بعضهم كرهه وذمه. وجعل ناقداً حصيفاً، وعالماً جليلاً كالإمام عبد القاهر لا يخوض غماره، وإنما سبح حوله، وأخذ منه بالقدر الذي أمن فيه على نفسه التكلف، وجنبه إقحام نفسه فيما كفاه غيره عناء البحث فيه، وعرض منه لأجناس معينة اقتضتها طبيعة الموضوع الذي يتحدث فيه .

وإذا أردت أن تتيقن من ذلك انظر في قول الإمام الذي تجد صداه في فعله، الأمر الذي يؤكد بصيرته، ومعرفته بطبيعة النفس، وما يمكن أن يداخلها من تأثير الكلام بتزيينه، بالمدح، وغيره من دروب القول من العجب، والكبر وأن على العاقل أن يحذر ذلك، وأن يراعيه فيما هنالك قال : (... أن من شأن المدح إذا ورد على العاقل أن يَقِفَه بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقّهما: معرفةِ حقّ المادحِ على ما احتشد له من تزيينه، وقصده من تفخيم شأنه في عيون الناس بالإصغاء إليه والارتياح له، والدِّلالة بالبشر، والطلاقة على حُسن موقعه عنده، ومَلْكِ النفس حتى لا يغلبها السرور عليه، ويخرج بها إلى العُجْب المذموم وإلى أن يقول: أنا، فيقعَ في ضَعَة الكِبْر من حيث لا يشعُر، ويَظهر عليه من أمارته ما يُذَمُّ لأجله ويُحقَّر، فما كُبر أحد في نفسه إلاّ غان الكِبْرُ عَلى عقله، وفَسخَ عُقْدةً من حلمه، وهذا موقفٌ تزلُّ فيه الأقدام، بل تخِفُّ عندهُ الحلوم حتى لا يسلم من خُدَع النفس هناك إلا أفرادُ الرجال، وإلا مَنْ أدام التوفيقُ صُحْبَته، ومن أين ذلك وأنّى ...) [1].

ولست أريد من ذكر هذه الأمور الحديث عن دين الإمام، وورعه، وإنما أردت أن أعرض لأمور لها فضل تعلق بصنيع الإمام في البديع، والأمور الموجهة له المؤثرة تأثيراً مباشراً فيما أخذ، وفيما ردَّ من ألوان البديع، ويمكن أن يكون لها أثر أيضاً في طريقة تكوين أسلوبه، وخصائص تراكيبه .

ومن نفس الوازع انطلق الإمام في دفاعه عن علوم اللغة، وخاصة النحو، والشعر، وردَّ على كل من قلل من شأنهما، وأدرك بفطنته خطر التهاون في أمرهما، ورأى الغرض المقصود من

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني / ٤٢٢ /ت: محمود محمد شاكر / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ ١٩٩١م / مطبعة المدني .

وراء الهجوم عليهما، بل عدَّ ذلك صدا عن سبيل الله ؛ لأن ترك النحو انحراف عن اللغة التي هي لسان الدين الذي كرس الإمام جهده من بداية كتابه الدلائل– بل من بداية حياته العلمية – لخدمته قال : (وأما زُهدهم في النَّحو واحتقارُهم له، وإصغارُهم أمرَهُ، وتهاوُنهم به فصنيعُهم في ذلك أشنعُ من صَنيعهم في الذي تقدَّم(الشعر) وأشبهُ بأن يكونَ صَدّاً عن كتاب الله وعن معرفة معاينه ذاك لأنَّهم لا يجدونَ بُدّاً من أنْ يَعْترِفُوا بالحاجة إليه فيه إذ كان قد عُلمَ أنَّ الألفاظَ مغلقةٌ على مَعانيها حتّى يكونَ الإعرابُ هو الذي يفتحها وأنّ الأغراضَ كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرِجَ لها وأنه المعيارُ الذي لا يُتبيَّنُ نُقصانُ كلامٍ ورُجحانهُ حتى يُعرضَ عليه . والمقياسُ الذي لا يُعرف صحيحٌ من سقيمٍ حتّى يُرجَعَ إليه . ولا يُنكِرُ ذلك إلا مَن نَكر حِسَّه وإلا مَن غالطَ في الحقائقِ نَفْسَهُ وإذا كان الأمرُ كذلك فليتَ شعري ما عذرُ مَن تهاونَ به وزهدَ فيه ولم يرَ أنْ يستسقِيهُ من مَصَبه ويأخذَهُ من معدِنه ورضيَ لنفسه بالنَّقصِ والكمالُ لها مُعرضٌ وآثر الغَبينة وهو يجدُ إلى الرِّبحِ سبيلاً)[1].

وهو يشير بذلك إلى أهمية النحو في فهم معاني القرآن الكريم، ومعرفة السليم من السقيم من الأساليب فهو المعيار، والميزان لجميع المتكلمين باللغة، ولا ينكر ذلك إلا من ليس له ذوق وحس باللغة، أو معاند عرف الحق وانصرف عنه .

فاللغة هي خط الدفاع الأول الذي يحاول اختراقه من يريد هدم الدين حتى إذا ما تم له ذلك سهل عليه تفريق الأمة، ومن ثَمْ السيطرة عليها، وإلتهامها كما حدث في العصور التي غاب عنها أمثال عبد القاهر كما حدث بعد ذلك وما يحدث إلى عصرنا.

البديع قبل عبد القاهر

ظهر البديع كغيره من فنون الكلام، ونما نموا طبعياً دون تكلف كغيره من ألوان البلاغة وبدا ذلك في شعر الجاهليين، ونثرهم حيث كانوا يرسلون المعاني إرسالا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا، ينطلق الواحد منهم في كلامه كما ينطلق في صحرائه لا تمنعه موانع، ولا تحده حدود، ولا تقيده قيود، ولا يعجزه معنى، ولا يستعصي عليه لفظ، يولد معناه متلبساً بلفظه فلا يفكر في استبداله بغيره، ولا يراجع فيه أحداً.

---

(١) دلائل الإعجاز / ٢٨ .

قال الجاحظ : (وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة، وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة، ولا مكابدة، ولا إجالة فكر، ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يندو ببعير، أو عند المقارعة، والمناقلة، أو عند صراع، أو في حرب، فما هو إلا أن ينصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي يقصد فتاتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون....)(١).

حتى من أطلق عليهم عبيد الشعر كزهير، والنابغة، وغيرهما ممن كانوا يطيلون النظر في أشعارهم وتبقى قصائدهم زمناً قبل إخراجها للناس، فليس هذا من جنس التكلف الذي اتصف به المحدثون ؛ لأن الواحد منهم كان يقول قصيدته كيفما اتفقت له دون أن يتعمد لوناً معيناً من ألوان البديع ثم يعيد النظر فيها لا ليقحم شيئاً من البديع فيها، وإنما ليصلح ما لا يراه لائقاً بفحولته، أو مناسباً لقصيدته، فيحكم عقله في رأيه، ويحكم رأيه في شعره تحدوه ملكة أصيلة،ويحرسه طبع غالب، (ثم إنه فرق كبير بين التكلف، وبين الاحتفال في الكلام، والاحتشاد له لصقله، وتهذيبه، البعد عن التكلف واجب، والاحتفال بالكلام وشدة العناية بصقله وتهذيبه واجب، الأول يناقض سجية الطبع، والثاني من صميم سجية الطبع ؛ لأن الإنسان فطر على حب الإحسان) [٢] كما قال عدي بن الرقاع :

وقَصيدَة قد بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَها ... حَتَّى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها
نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِهِ ... حَتَّى يُقِيمَ ثِقافُه مُنْآدَها [٣]

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٢٠ /ت : الحامي فوزي عطوي / الطبعة الأولى، ١٩٦٨م/ دار صعب – بيروت.

(٢) مراجعات في أصول الدرس البلاغي د: محمد محمد أبو موسى / صـ : ١٦٣ / الطبعة الأولى / مكتبة وهبة / ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

(٣) ديوان عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ ٧١٤ م) ص : ٣٥ ت : جمع وشرح د : حسن محمد نور الدين / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .

وهو ما قرره الجاحظ في قوله :(ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديا ولا قولاً مستكرهاً، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال، والاقتضاب، أو كان من نتاج التخير، والتفكر، ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتاً(تاماً)، وزمناً طويلاً يردد فيها نظره، ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله، وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله ذماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته)[1].

فالطبع، والسجية لا تعني الخلو من الجهد، والمكابدة، والنظر فيما أبدعت تلك السجية، وما أنتج هذا الطبع قال الشيخ أبو موسى (لا تظن أن إرسال المعاني على سجيتها يعني الخلو من المجهود، والبعد عن الاحتفال، والاحتشاد، والمكابدة ؛ لأن إرسالها إنما يكون بعد المعاناة في الكشف عن مخبآتها، واستخراجها من مضابئها، وجمع أوابدها، واقتناص شواردها، فإذا ما توافت، وصدع فجرها، وتألق ألقها، ورأيتها تهادت، وحامت كالطيور البيض، فأرسلها على سجيتها، واتركها تناغي من الألفاظ ما هو أشبه بها)[2]

وعلى عكس ما قرر كثير من الباحثين، والنقاد أن البديع لم يكن عند القدماء قرر الإمام عبد القاهر أن فنون البديع من أكثر فنون الكلام انتشاراً عند القدماء قال:(ولستَ تجد هذا الضرب يكثُر في شيءٍ، ويستمرُّ كَثْرَته واستمرارَه في كلام القدماء، كقول خالد: ما الإنسان، لولا اللسان، إلا صورة ممثلة، وبهيمة مُهْمَلة، وقول الفضل بن عيسى الرقاشي: سَلِ الأرض فقل: مَنْ شَقَّ أنهارك، وغرسَ أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تُجبك حِواراً، أجابتك اعتباراً.

وإن أنتَ تتبَّعته من الأثر وكلام النبي ﷺ تَثِقْ كلَّ الثقة بوجودك له على الصِّفة التي قَدمتُ، وذلك كقول النبي ﷺ: " الظُّلْم ظُلُماتٌ يوم القيامة "، وقوله ﷺ : " لا تزالُ أُمَّتي بخيرٍ ما لم

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ / ١ / ٢١٧ .

(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر / د: محمد محمد أبي موسى / ١٣٣ /الطبعة الأولى /١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م /مكتبة وهبة .

ترَ الغنى مَغْنَماً، والصدقةَ مَغْرَماً "، وقولهﷺ: " يا أيُّهَا الناس؛ أَفْشُوا السلام، وأَطْعِمُوا الطعام، وصِلُواْ الأرحامَ، وصَلُّوا بالليلِ، والناسُ نِيامٌ، تدخلُوا الجنَّةَ بِسَلامٍ "، فأنت لا تجد في جميع ما ذكرتُ لفظاً اجتُلِب من أجل السجع، وتُرك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه وأبرُّ به، وأهدَى إلى مَذْهبه)[1].

وهو ما أشار إليه ابن المعتز من قبله حين تحدَّث عن هدفه من تأليف كتابه، وأنه أراد أن يدلل على أن البديع موجود عند الأقدمين بكل أنواعه المعتبرة، وليس من اختراع المحدثين . قال:(قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن، واللغة، وأحاديث الرسول ﷺ وكلام الصحابة، والأعراب، وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمَّاه المحدثون البديع، لـيُعْلَمَ أن بشاراً، ومسلماً، وأبا نواس، ومن تقيَّلهم، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سُمِّي بهذا الاسم فأعرب عنه، ودلَّ عليه، ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه، وتفرَّع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض، وتلك عُقْبى الإفراط ، وثمرة الإسراف ...وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع)[2].

ومن البيِّن في نص ابن المعتز أنه يقرر سبق المتقدمين إلى البديع فعلاً، وأن المحدثين ليس لهم فضل إلا في التسمية كما نسب إليهم الإفراط فيه مما جعلهم يسيئون استعماله، وهو عيب خلا منه كلام الأقدمين.

ثم إن تصريح ابن المعتز بهدفه هذا من تأليف الكتاب يشير إلى أن هناك حركة نقدية تموج في المجتمع موجاً جارفاً هدفه تعمية، وطمس ما يمكن أن يكون فخراً للقدماء العرب بنسبته إلى غيرهم، وهو ما لا يكاد أن يخلو منه زمان، وقد تصدت لهم طائفة من النقاد الغيورين منهم ابن المعتز بكتابه هذا .

---

(١) أسرار البلاغة / ١٢ .

(٢) ينظر البديع لابن المعتز ص : ٣ : ٤ .

قال الدكتور شوقي ضيف تعليقاً على نص بن المعتز السابق (وكأنما كان هناك من يزعم أن المحدثين هم الذين أنشأوا البديع إنشاء، أنشأوه من عدم .... ولم يسم ابن المعتز أصحاب هذا الزعم، وكانوا لا يخلون من أحد اثنين : إما متفلسف متعصب لم يتعمق الأدب العربي وأصوله، وإما شعوبي ممن يغمطون العرب القدماء حقهم، وينكرون عليهم كل فضل)[1]

ويؤكده نص آخر لابن المعتز صرَّح فيه بذلك قال :(قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا، وكأني بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال البديع أكثر من هذا، وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه ؛ لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء، ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة، والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو وما جمع فنون البديع، ولا سبقني إليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين)[2] فابن المعتز يردُّ على معترض من نوع خاص معاند مغرم بالاعتراض، ومعنى هذا حيف هذا المعترض، ورغبته في الانتقاص المجرد عن العدالة في النقد، وهو ما أشار إليه الدكتور شوقي ضيف تعليقا على هذا النص من أنه لا يخلو من أن يكون متفلسفاً متعصباً لم يتعمق الأدب العربي، وأصوله، أو شعوبياً ممن يغمطون العرب القدماء حقهم .

كما يشير نص ابن المعتز إلى طبيعة النقد في عصره، وما وصل إليه هذا الصراع، وأثره على النقد مما سيكون له تأثير على من بعده من الأدباء، والنقاد، وغيرهم كما سنرى عند الإمام عبد القاهر.، كما يؤكد النص عدم غفلة ابن المعتز عن طبيعة الألوان البلاغية التي أطلق عليها اسم البديع، ويقرر وجهة نظره فيما ذهب إليه من تقسيم هذه الألوان إلى فنون البديع، ومحاسن الكلام، كما أنه يقرر أنه أول من ألف في البديع، ويسجل لنفسه هذا السبق .

وما أشار إليه بن المعتز من سبق المتقدمين إلى البديع أكّده أبو هلال العسكري لاحقاً بعد أن ذكر ألوان البديع التي سبقه إليها من تقدمه وما أضافه هو إليها من ابتكاره قال :(فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها وذلك

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ / د/ شوقي ضيف / ص : ٦٧ / الطبعة التاسعة / دار المعارف .

(٢) البديع لابن المعتز / ٥٨ .

لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ؛لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبريء من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة)[1] .

وتصديقاً لقول ابن المعتز، وغيره عن سبق المتقدمين إلى البديع نعرض ألواناً منه، وردت في شعر المتقدمين، ونثرهم نؤكد خلالها عدة حقائق منها سبق المتقدمين إلى البديع، وطبيعة استخدامهم له مع الإشارة إلى خصائص البديع عندهم، ومدى تأثر النقاد، والأدباء، والشعراء، وغيرهم بهذه الألوان .

من ألوان البديع عند المتقدمين.

وردت ألوان من البديع في نثر الأقدمين، وشعرهم دون قصد إليها، وإنما جاءت مستدعاة من السياق دون أن يعرفوا لها اسماً، وإنما وردت كغيرها من ألوان البلاغة المختلفة، ولأكثرها اتصال، وثيق بالمعنى بعكس ما شاع عند المتأخرين الذين كلفوا بما له فضل اتصال بجرس الألفاظ، وهذا ما سيتضح خلال عرض ألوان من بديع المتقدمين، نرى خلالها ما ورد من البديع، وموقعه من السياق، وأهم ما يتميز به، ومدى اتصاله بالمعنى، والذي يمكن أن يردَّ على الذين ادعوا أن البديع علم تزيين، وأنه يأتي بعد تمام المعنى، ومنها :

الطباق، أو التضاد، وهو من طابق البعير في مشيه إذ وضع خف رجله موضع خف يده، وهو الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة، ويبدو من التعريف أن سرَّ تأثير هذا اللون يرجع إلى اتصاله بالمعنى ؛ لأن الضد يستدعي ضده في الذهن فإذا ذكر هذا الضد كان فيه من التأكيد، والطرافة ما لا يخفى حسنه ؛ ولذلك قال الإمام عبد القاهر:(وأما التطبيق فأمره أبْيَن، وكونه معنويا أجلى، وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده، والتضاد بين الألفاظ المركبة محال، وليس لأحكام المقابلة ثَمَّ مجال)[2].

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري/ ٢٣٩/ ت : علي محمد البيجاوي، و محمد أبو الفضل إبراهيم / المكتبة العصرية / الطبعة الأولى سنة/ ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م .

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / ٢٠ .

كقول امريء القيس:

أَغْتَدي وَالطَيرُ في وُكُناتِها بِمُنجَرِدٍ قَيدِ الأَوابِدِ هَيكَلِ وَقَد

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعاً كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ (١)

أراد الشاعر أن يقول إن هذا الفرس لفرط ما فيه من لين الرأس، وسرعة الانحراف تـرى كفله في الحال التي ترى فيها لببه فهو كجلمود صخر دفعه السيل من مكان عال فإن الحجر بطبعه يطلب جهة السفل ؛ لأنها مركزه فكيف إذا أعانته قوة دفع السيل من عل فهو لسرعة تقلبه قد يقع في هيئة السكون فالمطابقة في الإقبال، والإدبار، ولكنه لما قال معاً زادها تكميلاً في غاية الكمال فإن المراد بها قرب الحركة في حالتي الإقبال، والإدبار، وحالتي الكر، والفر فلو ترك المطابقة مجردة مـن هذا التكميل ما حصل لها هذه البهجة، ولا هذا الموقع، ثم إنه استطرد بعد تمام المطابقـة، وكمـال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي، ولم يكن قد ضُرب لأنواع البـديع في بيـوت العرب، وتد، ولا امتد له سبب، وقد اشتمل بيت امرئ القـيس علـى المطابقـة، والتكميـل، والاستطراد (٢) وهذه الألوان وردت دون تكلف ولا استكراه، وإنما استدعاها المقام .

ومن طباق التدبيج : قول عمرو بن كلثوم :

بِأَنّا نوردُ الرايات بيضاً وَنُصدِرُهُنَّ حُمراً قَد رَوينا

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا (٣)

ورد الطباق في البيت الأول من هذين البتين، وقد سبق بعدة أبيات لم يطابق فيها، وكذلك تلاه أبيات كثيرة لم يطابق فيها إلا ما اتفق له دون تعمد، ولا قصد إليه، ولو كان حريصاً على الطباق لقال مثل قول أبي الشيص :

---

(١) ديوان امريء القيس ص ٤٥ / ت : حسن الفاخوري بمؤازرة الدكتور : وفاء الباني / دار الجيل- بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م .

(٢) ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ١٦١/ المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري / تحقيق : عصام شعيتو/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧/ دار ومكتبة الهلال – بيروت .

(٣) ينظر ديوان عمرو بن كلثوم / ٥٧ / دار صادر – بيروت الطبعة الأولى / ١٩٩٦ .

فأورَدها بيضاً ظماءً صدورُها ... وأصدرَها بالريّ ألوانُها حَمْرَا (١)

فقد طابق بين أورد، وأصدر، وبين الظمأ، والري، وبين البيض، والحمر، أما عمرو بن كلثوم فلم يكن يعنيه الطباق، وإنما عناه التعبير عن معنى المضاء في الأمور، والافتخار بقوة قومه، وشجاعتهم، وفتكهم بأعدائهم، فعبر عنه كيفما اتفق دون النظر إلى اسم اللون البلاغي .

ومنها المقابلة ومن البيِّن الجلي -أيضا - أن مصدر استحسانها، أو إنكارها هو المعنى، لأنها مقابلة لمعانٍ بأضادها كقول الأخطل :

المُهدِياتُ لِمَن هَوَينَ مَسَبَّةً وَالمُحسِناتُ لِمَن قَلَينَ مَقالا

يرعينَ عهدكَ ما رأينكَ شاهداً ... وإذا مذلْتَ يصرنَ عنكَ مذالا

وإذا وعدْنَكَ نائلاً أخلفنهُ ... ووجدتَ عندَ عداهُنَّ مطالا وإذا وزنتَ حلومهنَّ مع الصبا ... رجح الصبا بحلومِهِنَّ فمالا (٢)

ومن هذه الألوان أيضاً مراعاة النظير(٣)

كقول امريء القيس :

أَمِنْ أَجْلِ نَبْهَانِيَّةٍ حَلَّ أَهْلُها ... بِجزْعِ المَلا عَيْناكَ تَبْتَدِران

فدَمْعُهُما سكْبٌ وسَحٌّ وديمَةٌ ... ووَبْلٌ وتَوْكافٌ وتَنْهمِلان(٤)

فالمحسن البديعي في هذا البيت راجع إلى انسجام الألفاظ ؛لأنها متقاربة المعنى وكلها من وادٍ واحد ؛لأن السكب، والسح، والديمة، والوبل، والتوكاف، والانهمال كلها تستعمل في التعبير عن حركة الماء في المطر، والسيل على الحقيقة، وفي الدمع على سبيل المجاز فهي متسقة مع بعضها وهو ما يسمي بمراعاة النظير، وهو الجمع بين الشيء، وما يناسبه، وكقول ذي الرمة :

---

(١) ينظر معاهد التنصيص على شروح التلخيص /الشيخ عبد الرحيم أحمد العباسي ت ٩٦٣/ ١ /١٩١/ ت محمد محي الدين عبد الحميد / عالم المكتب - بيروت .

(٢) ديوان الأخطل / شرح مجيد طراد / ٢٤٠ / دار الجيل بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة / للخطيب القزويني / ٦ / ١٩ / ت : محمد عبد المنعم خفاجي / الطبعة الثالثة / دار الجيل - بيروت .

(٤) ديوان امريء القيس / ص ٩٤ .

لَمياءُ في شَفَتَيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفي اللثات وَفي أنيابها شَنَبُ
كَحلاءُ في بَرَجٍ صَفراءُ في نَعَجٍ كَأَنَّها فِضَّةٌ قَد مَسَّها ذَهَبُ (١) .

ومنها المبالغة : وهي أن يدَّعي لوصف بلوغه في الشدة، أو الضعف حداً مستحيلاً، أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة، أو الضعف، وتنحصر في التبليغ، والإغراق، والغلو ؛ لأن المدعي للوصف من الشدة، أو الضعف إما أن يكون ممكناً في نفسه، أو لا الثاني: الغلو، والأول إما أن يكون ممكناً في العادة أيضا، أو لا الأول: التبليغ، والثاني: الإغراق أما التبليغ فكقول امرىء القيس:

فَعَادَى عِداءً بَيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ ... دِرَاكاً ولَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ (٢)

وصف هذا الفرس بأنه أدرك ثورا وبقرة وحشيين في مضمار واحد ولم يعرق، وذلك غير ممتنع عقلا، ولا عادة، وأما الإغراق فكقول الآخر:

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا * وَنُتْبِعُهُ الْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالاَ (٣)

فإنه ادعى أن جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا، وهو يتبعه الكرامة، وهذا ممتنع عادة وإن كان غير ممتنع عقلاً، وهما مقبولان، وأما الغلو فكقول أبي نواس :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إنَّهُ * لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ (٤)

والمقبول منه أصناف أحدها ما أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة نحو لفظة يكاد في قوله تعالى (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ) (٥)، والثاني ما تضمن نوعاً حسناً من التخييل كقول أبي الطيب

---

(١) ديوان ذي الرمة / ص : ١٢ / قدم له وشرحه / أحمد حسن / نسخ دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٥.

(٢) ديوان امريء القيس / ص ٥٠ .

(٣) البيت لعمير بن كريم الثعلبي في خزانة الأدب لابن حجة الحموي / ٢/ ٨ .

(٤) ديوان أبي نواس / ٣٨٢ م شرح وضبط / علي فاغور / دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .

(٥) سورة النور من الآية ٣٥ .

أقبلت تبسمُ والجيادُ عوابسٌ ... يَخببنَ بالحلق المضاعف والقَنا
عقَدَتْ سَنَابِكُهَا عليها عِثْيَراً ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقاً عَلَيْه لأَمْكَنَا
والأمرُ أمرُكَ والقلوبُ خوافقٌ ... في موقفٍ بينَ المنيةِ والمُنى (١)

فإنه ادّعى أن الغبار المرتفع من سنابك الخيل قد اجتمع فوق رؤوسها متراكماً متكاثفاً بحيث صار أرضاً يمكن أن تسير عليها تلك الجياد، وهذا ممتنع عقلاً، وعادة، لكنه تخييلٌ حسن .

وقد جمع القاضي الأرجاني بينهما في قوله يصف الليل بالطول:

يُخَيَّلُ لي أَنْ سُمِّرَ الشُّهْب في الدُّجَى * وشُدَّتْ بأَهْدَابِي إلَيْهِنَّ أجْفَانِي (٢)

يقول : يوقع في خيالي أن الشُّهُبَ محكمة بالمسامير لا تزول عن مكانها، وأن أجفان عيني قد شُدت بأهدابها إلى الشهب لطول سهري في ذلك الليل وعدم انطباقها والتقائها، وهذا ممتنع عقلاً وعادة، ولكنه تخييل حسن، ولفظ يخيل مما يقربه إلى الصحة.

والثالث ما أخرج مخرج الهزل والخلاعة كقول المهلهل:

فَلَوْلاَ الرِّيْحُ أُسْمِعُ مَنْ بِحُجْرٍ...صليلَ البيضِ تقرعُ بالذكورِ (٣)

وقد قيل عن هذا البيت أنه أكذب بيت قالته العرب لأن بين مكان الواقعة و(حجر) عشرة أيام .

وقد جاءت عند القدماء ألوان من المبالغة المقبولة كقول زهير بن أبي سُلمى

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشّمسِ من كَرمٍ ... قومٌ بأَوَّلِهم أو مَجْدِهِم قَعَدُوا (٤)

ومنها الإرصاد : وحقيقته أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له أي أعدها في نفسه فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته وذلك من محمود الصنعة فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض وفي الافتخار بذلك يقول ابن نباته السعدي

---

(١) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / جـ ٤ / ٢٠٤ / ت : مصطفى السقا وآخرون / مطبعة الحلبي / الطبعة الأخيرة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .

(٢) الإيضاح / ٦ / ٦٤ .

(٣) ديوان المهلهل بن ربيعة / ٤١ / تقديم طلال حرب – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى / ١٩٩٦ .

(٤) شعر زهير بن أبي سلمى للأعلم الشنتمري / ٢٢٨/ ت : فخر الدين قباوة – دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .

خُذْهَا إذَا أنْشِدَتْ فِي الْقَوْمِ مِنْ طَرَبٍ ... صُدُورُهَا عُرِفَتْ مِنْهَا قَوَافِيهَا
يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ الْعَجْلاَنُ حَاجَتَهُ ... وَيُصْبِحُ الْحَاسِدُ الْغَضْبَانُ يُطْرِيهَا)

فمن هذا الباب قول النابغة :

فِدَاءٌ لاَمْرِيءٍ سَارَتْ إِلَيْهِ ... بِعِذْرَةِ رَبِّهَا عَمِّي وَخَالِي (١)

كقول عدي بن الرقاع العاملي في صفة ظبية وولدها التي بدأها بقوله:

عَرَفَ الدِيارَ تَوَهُّماً فَاعتادَها..... مِن بَعدِ ما شَمِلَ البِلى أبلادَها

قال فيها :

تَزجي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبرَةَ رَوقِهِ .... قَلَمٌ أَصابَ مِنَ الدَواةِ مَدادَها(٢)

فقوله(تزجي أغن كأن إبرة روقه) في الشطر الأول إرصاد لقوله في الشطر الثاني : (قلم أصاب من الدواة مدادها)لأنها الصورة المعبرة عن المعنى في الشطرة الأولى وهي مبشرة بها ؛ لأن من يعرف قرن صغير الظباء، ويسمع التشبيه يقع في نفسه هذا المعنى، ولذلك لما أنشد عدي بن الرقاع قصيدته تلك الوليد بن عبد الملك بحضرة جرير والفرزدق حتى انتهى إلى قوله:(تزجي أغن كأن إبرة روقه)ثم شغل الوليد عن الاستماع فقطع عدي الإنشاد، فقال الفرزدق لجرير: ما تراه يقول فقال جرير أراه يستلب بها مثلا، فقال الفرزدق : إنه سيقول :(قلم أصاب من الدواة مدادها)فلما عاد الوليد إلى الاستماع وعاد عدي إلى الإنشاد قال البيت، فقال الفرزدق والله لما سمعت صدر بيته رحمته فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسدا(٣) ولا شك أن قيمة هذا اللون البديعي تنبع من أنه يبشر بمعنى يأتي بعده فيكون بعد التصريح به كالتأكيد مع ما فيه من الطرافة وهو أمر معنوي صرف .

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر / المؤلف : أبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي /٢ / ٣٢٩/ تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد/ الناشر : المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥.

(٢) ديوان عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ ٧١٤ م) ص : ٣٥ .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب ١/ ٢٢٣/ المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري / تحقيق : عصام شعيتو/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧/ دار ومكتبة الهلال – بيروت .

ومنها الاستطراد[1]

كقول السمؤال :

وإنَّا لَقَوْمٌ ما نَرَى القَتْلَ سُبَّةً ... إذا ما رَأَتْهُ عامِرٌ وَسَلُولُ [2]

قال ابن رشيق وأول من نطق به السمؤل [3] ذلك أنه مدح قومه بالشجاعة وهجا عامرا وسلولا ووصفهم بالجبن في بيت واحد وطرافة هذا المحسن راجعة إلى حسن التخلص من غرض إلى غرض وهو أمر راجع إلى المعنى .

ومنها المشاكلة . .

ولها أيضا اتصال وثيق بالمعنى، وإن كان لفظها يوحي بأن لها تعلقاً باللفظ، والشكل، ولكن مبناها على ذكر المعنى بلفظ غيره لوقوعه في صحبته فمردها إلى المعنى .

كقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يَعلَمُ الأقوامُ أنَّا تَضَعضَعنا وَأنَّا قَد وَنينا

ألا لا يَجهَلَن أحَدٌ عَلَينا فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهِلينا [4]

فلفظ الجهل في الشطر الأول مقصود به الظلم والطغيان، وفي الثاني مقصود به رد هذا الظلم فسماه باسم سابقه لوقوعه في صحبته .

ومنها الرجوع :

وهو أن تذكر شيئا ثم ترجع عنه[5] كقول دريد بن الصمة :

---

(١) (الاستطراد : هو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني) الإيضاح في علوم البلاغة / للخطيب القزويني / ٦ / ٣٠ .

(٢) ديوان عروة بن الورد، و السمؤل / ص : ٩١ / دار صادر – بيروت – لبنان .

(٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيراوني (٤٣٦هـ) /٢/ ٢٧٧ / ت : مفيد محمد قميحة / طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الولى ت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

(٤) ديوان عمرو بن كلثوم / ص : ٦٢ .

(٥) ينظر البديع في البديع لأسامة بن منقذ / ١٧٧ / ت : عبد آ . علي مهنا / دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة الأولى –١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

عَبرُ الفَوارِسَ مَعروفٌ بِشَكَّتِه كافٍ إذا لَم يَكُن في كَربَةٍ كافي
وَقَد قَتَلتُ بِهِ عَبساً وَإِخوَتَها حَتّى شُفيتُ وَهَل قَلبي بِهِ شافي(١)

ومنها اللف والنشر كقول امريء القيس :

كَأَنَّ قُلوبَ الطَيرِ رَطباً وَيابِساً لَدى وَكرِها العُنّابُ وَالحَشَفُ البالي (٢)

ومنها التقسيم :هو أن تذكر شيئاً ذا جزءين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك (٣) كقول زهير بن أبي سلمى :

فَإِنَّ الحَقَّ مَقطَعُهُ ثَلاثٌ يَمينٌ أَو نِفارٌ أَو جِلاءُ (٤)

قال ابن أبي الإصبع المصري (وكنت أظن أن زهيراً هو المبتدئ بصحة التقسيم حتى عثرت على قول امرئ القيس :

وليسَ بِذي سيف فيقتلني بهِ ... وليسَ بِذي رُمحٍ وليسَ بنبّالِ (٥)

فاستوعب آلات القتال، ورتبها في البيت على ما يكون عليه في الحرب من الأفضل فالأفضل. فتمت صحة التقسيم بجميع شروطها كما ترى(٦)

ومنها المذهب الكلامي :

وقد نسبت تسميته إلى الجاحظ وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة، ومنه قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)هذا دليل قاطع

---

(١) ديوان دريد بن الصمة ص : ١٣٣ ت : د / عمر عبد الرسول – طبعة دار المعارف .

(٢) ديوان امريء القيس / ص ٦٨ .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي / ٤٢٥/ ت : نعيم زرزور / طبعة دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م .

(٤) شعر زهير بن أبي سلمى / ١٣٨ .

(٥) ديوان امريء القيس / ٦٨ .

(٦) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري / ١٧٨/ ت : د : حفني محمد شرف / طبعة لجنة إحياء التراث العربي / ١٩٨٥م.

على وحدانيته جل جلاله وتمام الدليل أن تقول لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله، ومنه قوله :(لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا[1]

وكقول زهير بن أبي سلمى

فَما يَكُ مِن خَيرٍ أَتَوهُ فَإِنَّما تَوارَثَهُ آباءُ آبائِهِم قَبلُ
وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إِلّا وَشيجُهُ وَتُغرَسُ إِلّا في مَنابِتِها النَخلُ[2]

ومنها التفريع :وهو أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق له آخر[3]

كقول الأعشى :

ما رَوضَةٌ مِن رِياضِ الحَزنِ مُعشَبَةٌ خَضراءُ جادَ عَلَيها مُسبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشَمسَ مِنها كَوكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَبتِ مُكتَهِلُ
يَوماً بِأَطيَبَ مِنها نَشرَ رائِحَةٍ وَلا بِأَحسَنَ مِنها إِذ دَنا الأُصُلُ[4]

ومنها تأكيد المدح بما يشبه الذم :وهو ضربان أفضلهما أن يستثني من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقول النابغة الذبياني :

ولا عَيْبَ فيهمْ غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[5]

أي إن كان فلول السيف من قراع الكتائب من قبيل العيب فأثبت شيئا من العيب على تقدير أن فلول السيف منه، وذلك محال فهو في المعنى تعليق بالمحال كقولهم حتى يبيض القار فالتأكيد فيه من وجهين أحدهما أنه كدعوى الشيء ببينة، والثاني أن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلا فإذا نطق المتكلم بإلا أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أن ما يأتي بعدها مخرج مما قبلها فيكون شيء من صفة الذم ثابتا وهذا ذم فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحا

---

(١) خزانة الأدب / ١ /٣٦٤ .

(٢) شعر زهير بن أبي سلمى / ٤٤ .

(٣) الإيضاح / ٦/ ٧٣ .

(٤) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس / ٣٠٣ / شرح وضبط د / محمد أحمد قاسم / المكتب الإسلامي / الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م .

(٥) ديوان النابغة الذبياني / ص : ١١ / ت : كرم البستاني – دار صادر – بيروت .

على مدح وإن كان فيه نوع من الخلابة والثاني أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له كقول النبي (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)[1]

وكقول النابغة الجعدي :

فَتىً كَمُلَت أخلاقُه غيرَ أنَّهُ جَوادٌ فَما يُبقي منَ المالِ باقِيا

فَتىً تَمَّ فِيهِ ما يَسُرُّ صَديقَهُ عَلى أنَّ فِيهِ ما يَسُوءُ الأعاديا [2]

ومنها تجاهل العارف وهو : سوق المعلوم مساق غيره لنكتة [3]

كقول زهير بن أبي سلمى :

وَما أدري وَسَوفَ إخالُ أدري أَقَومٌ آلُ حِصنٍ أَم نِساءُ [4]

لزوم ما لا يلزم وهو أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع كقوله تعالى (فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) وقوله (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر)[5]

وكقول طرفة بن العبد :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَالَ يَكْسِبُ أَهْلَهُ ... فُضُوحاً إِذَا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَوَاسِبُهْ

أَرَى كُلَّ مَالٍ لاَ مَحَالَةَ ذَاهِباً ... وَأَفْضَلُهُ مَا وُرِّثَ الحمدَ كَاسِبُهْ [6]

---

(١) الإيضاح / ٦ / ٧٤ .

(٢) ديوان النابغة الجعدي / ١٨٨ / جمع وتحقيق وشرح د : واضح الصمد – دار صادر بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي / ٤٢٧.

(٤) شعر زهير بن أبي سلمى / ١٣٦ .

(٥) الإيضاح / ٦ / ١١٥ .

(٦) البيت لطرفة بن العبد وليس في ديوانه، وهو منسوب إليه في المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي/ ١ / ٢٦٦/ ت: محمد محيي الدين عبدالحميد / الناشر : المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥.

وروده في القرآن الكريم وفي كلام المتقدمين دليل على أن ذمه ليس نابعاً من طبيعته وانما من طريقة استخدامه ؛لأنه إذا استدعاه المعنى، وقبله السياق كان له وقعاً مميزاً وجرساً حسناً يجذب السمع، ويحقق الإنصات، ويساعد على الحفظ .

ومنها الجناس كقول امرئ القيس :

لَقدْ طَمِحَ الطِّماحُ مِنْ بُعْدِ أرضِهِ ... لِيُلْبِسني مِنْ دائه ما تَلَبَّسَا [1]

ومنه قول عبيد الأبرص :

أَرِقْتُ لِضَوْءِ بَرْقٍ في نَشَاصِ [2] ... تَلألأَ في مُمَلأَة غِصَاص

لَوَاقِحَ دُلِّحٍ بالماءِ سُحْمٍ ... تَمُجُّ الغَيْثَ من خَلَلِ الخَصَاصِ [3]

سَلِ الخُطَبَاءَ هَلْ سَبَحُوا كسَبْحِي ... بُحُورَ القَوْلِ أو غَاصُوا مَغَاصِي

لساني بالنثير وبالقوافي ... وبالأسجاع أمهر في الغواص

من الحوت الذي في لج بحر ... يجيد الغوص في لجج المغاص[4]

ونلاحظ أن الجناس في أبيات عبيد كثير، ولكنه منقاد للمعنى متسق مع السياق لو رام استبداله لذهب حسنه، ولدخل على المعنى من التكلف بتركه ما يداخله بتعمده .

ومنه الترصيع، والترصيع كالتسجيع في كونه يجزئ البيت إما ثلاثة أجزاء إن كان سداسياً، أو أربعة إن كان ثمانياً وسجع على ثاني العروضين دون الأول، وأكثر ما يقع الجزءان المسجع والمهمل في الترصيع مدمجين إلا أن أسجاع التسجيع على قافية البيت، والفرق بينه وبين

---

(١) ديوان امرئ القيس / ٣٥٣ .

(٢) النشاص : السحاب المرتفع (لسان العرب جـ ٧ / ٩٦)

(٣) الخصاص : كل خرق أو خلل في سحاب أو منخل يسمى: خصاصة والجميع: خصاص./ كتاب العين /المؤلف: الخليل بن احمد الفراهيدي/ ٤/ ١٣٥/ الناشر: مؤسسة دار الهجرة/ الطبعة: الثانية في ايران/ تاريخ النشر: ١٤٠٩

(٤) ديوان عبيد الأبرص / ٨٤ / طبعة دار صادر .

التسميط المسمى تسمي التبعيض أن المسجع من قسمي التسميط معاً هي أجزاء عروضية، والمسجع من الترصيع أجزاء غير عروضية لوقوع السجع في بعض الأجزاء [١]

كقول الخنساء :

الحمدُ خُلَّتُهُ، والجودُ علَّتُهُ، ... والصدْقُ حوْزَتُه، إنْ قِرْنُهُ هابا

سدّادُ أوْهبَة، شهّادُ أندية، ... قطّاعُ أودية، للوتْرِ طَلاّبا

حمّالُ ألوية، ضرّابُ أبنية، ... وَرّادُ مُسنية، في الحَرْبِ غَصّابا

سُمُّ العُداة، وفكّاكُ العُناة، إذا ... لاقى الوغَى لم يكُنْ للموت هُيّابا

الخيرُ يفعلهُ، والقولُ يَفْضُلُه، ... والمالُ يُنْهبُهُ في الحقِّ إنهابا[٢]

وقال امرؤ القيس:

الماءُ مُنْهَمِرٌ، والشّدُّ مُنْحَدِرٌ ... والقُصْبُ مُضْطَمِرٌ، والمتْنُ ملْحوبُ [٣]

والمتأمل لتأثير هذا اللون البديعي يدرك أن له تأثيراًساحراً ينبعث خلال تقسيم فقراته بطريقة متوازنة تبعث نغماً شيقاً تطرب له الأذن، وترتاح له النفس، ويدخل إليها المعنى معه دخول المأنوس.

ومنها رد العجز على الصدر : وهو أن يكون إحدى الكلمتين المتكررتين أو المتجانستين أو الملحقتين بالتجانس في آخر البيت والأخرى قبلها في أحد المواضع الخمسة من البيت وهي صدر المصراع الأول وحشوه وآخره وصدر المصراع الثاني وحشوه . [٤]

كقول زهير بن أبي سلمى :

كذلكَ خِيمُهُمْ ولكلّ قومٍ ... إذا مسَّتهمُ الضرَّاءُ خيمُ [٥]

---

(١)تحرير التحبير لأبن أبي الإصبع المصري / ص : ٣٠٢ .

(٢)ديوان الخنساء / ص : ٨ / دار صادر – بيروت .

(٣) ديوان امريء القيس / ص ٣٥٣ .

(٤) مفتاح العلوم للسكاكي / ٤٣٠ .

(٥) شعر زهير بن أبي سلمى / ١٥١ .

ومنها السجع :وهو تواطؤ الفاصلتين على حرف واحد كقول قس بن ساعدة الإيادي في ما روي عنه في قصة وفد قومه لما قدم على رسول الله ﷺ فقال (أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله قال فما فعل ؟ قالوا هلك قال فما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب الناس ويقول:(أيها الناس اجتمعوا واسمعوا، وعوا من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، وأقسم قس قسما حقا لئن كان في الأمر رضا ليكونن بعده سخط إن لله لدينا هو أحب إليه من دنياكم دينكم الذي أنتم عليه ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا فناموا؟!) ثم قال: ﷺ (أمنكم من يروي شعره؟ فأنشده بعضهم : في الذَاهِبِيْنَ الأوَّلِيْ ... نَ من القُرُونِ لنا بَصَائِرْ

لَمّا رَأيْتُ مَوارِداً ... لِلْمَوْتِ ليس لها مَصَادِرْ

ورَأيْتُ قَوْمي نَحْوَها ... تَمْضي الأصاغِرُ والأكابِرْ

لا يَرْجِعُ الماضي إلَ ... يَ ولا من الباقِيْنَ غابِرْ

أيْقَنْتُ أنّي لا مَحَا ... لَةَ حَيْثُ صارَ القَوْمُ صائِرْ[1] [2]

فقوله (اجتمعوا واسمعوا، وعوا من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت ....) جاءت فقراته مسجوعة، وقد عرضت للحديث بطوله لأن فيه دلالة على أن السجع ليس مذموما على الإطلاق شرعا فقد أثنى الرسول ﷺ على قس وتذاكر خطبته ولأن بعض الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ فيها ذم السجع،لما ما فيه من تكلف واستكراه تأباه الطباع ولذا اختلفت نظرة الأدباء إليه بين معارض، يكره السجع وينفي وجوده في القرآن كأبي بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، ومن تبعه وبين مؤيد يستحسنه ويرى وروده في القرآن كأبي هلال العسكري في

---

(١) وردت الأبيات في حديث لقس بن ساعدة في الأغاني / ١٥/ ٢٣٧ .

(٢) الأحاديث الطوال / المؤلف : سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني / جـ : ١ / ص: ٢٣٠/ حديث (٢٢) ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي / الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣/ الناشر : مطبعة الأمة – بغداد .

الصناعتين وابن الأثير في المثل السائر وابن سنان الخفاجي في كتابه سر الفصاحة والتنوخي في الأقصى القريب وغيرهم .

وأجاز بن عبد البر السجع واستدل بوروده في حديث الرسولﷺ قال :(وفيه إجازة السجع الحق من القول لقوله صلى ﷺ (كتاب الله أحق وشرط الله أوثق وإنما الولاء لمن اعتق)وهذا تفسير قوله في سجع الأعرابي (أسجعا كسجع الكهان) لأن الكهان يسجعون بالباطل ليخرصون ويرجمون الغيب ويحكمون بالظنون، وكذلك عاب سجعهم، وسجع من أشبه معنى سجعهم ولذلك عاب قول الأعرابي في معارضة السنة بقوله(كيف أغرم ما لا أكل ولا شرب ولا استهل ؟ ومثل ذلك يطل فقال له (أسجعا كسجع الكهان) لأنه كان سجعا في باطل اعتراضا على حكم رسول الله ﷺ.

وهذا يدل على أن السجع كلام كسائر الكلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح)[1] وهو الرأي الصحيح الذي عليه جمهور النقاد وأهل الذوق السليم لما له من تأثير في النفس وخلابة للعقل وتيسير في الحفظ، شريطة أن يكون تابعا للمعنى لا تكلف فيه ولا مقصودا به إبطال حق ولا إحقاق باطل .

قال الجاحظ (قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن قال إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع والآذان لسماعه انشط وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره،قالوا فقد قيل للذي قال يا رسول الله أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل أليس مثل ذلك بطل فقال رسول الله (أسجع كسجع الجاهلية)قال عبد الصمد لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس

(١) الاستذكار (المؤلف : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري / ٧/ ٣٥٧/ ت : سالم محمد عطا، محمد علي معوض / الطبعة الأولى، ١٤٢١ – ٢٠٠٠ هـ .

ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق في كلامه)[1] ومن يتأمل استخدام الشعراء المطبوعين يجد جمال السجع وخفته وكذا كل ألوان البديع في المنبع الصافي لأنك كلما اقتربت من المنبع وجدت الماء أصفى وأعذب وإذا نظرت في خصائص البديع عند الجاهليين وجدت الصورة المثلى لاستخدام هذه الألوان .

من خصائص البديع عند الجاهليين. يتبين خلال ما سبق أن أهم ما يمتاز به البديع في العصر الجاهلي:

١- أنه طبعي لا تكلف فيه لأنهم يحرصون على المعنى قبل أن يحرصوا على الصياغة حتى يصدر في جلاء وقوة ووضوح مطابقا للواقع مصورا للحقيقة معتمدا على الحس أكثر من غيره مستمدا عناصره الخيالية من بيئته وما فيها . قال ابن رشيق (والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي)[2] تأمل قول عبيد الأبرص .

١- يا ذا المُخوِّفُنا بقتل ... أبيه إذلالا وحَيْنا
٢- أزعمتَ أنَّك قد قتلت... سراتنا كذبا ومينا
٣-إنَّا إذا عض الثقافُ ... برأس صَعْدتنا لَوَيْنَا
٤- نحمي حقيقتنا وبعضُ ... القوم يسقط بَيْنَ بَيْنَا
٥- هَلاَّ سألتَ جموع كِندةَ.... يوم ولو أين أين
٦- أيام نضرب هامَهُمْ ... ببواترٍ حتى انْحَنَيْنَا
٧- وجموعُ غسَّانَ الملو ... كُ أتينهمْ وقد انطوينا
٨- لحقاً أياطلُهنَّ قدْ ... عالجنَ أسفاراً وأينا

(١) البيان والتبيين /المؤلف : أبي عثمان عمرو بن بحر / ١/١٥٣/ تحقيق : الحامي فوزي عطوي / الطبعة الأولى، ١٩٦٨الناشر : دار صعب – بيروت .
(٢) العمدة / ١/ ١٠٨ .

٩- ولقدْ صلقنَا هوازناً ... بنواهلٍ حتَّى ارتوينا

١٠- نُعليهمُ تحتَ الضَّبا ... بِ المشرفيِّ إذا اعتزينا

١١- نحنُ الأُلى فاجمعْ جمو ... عكَ ثمَّ وجّههمْ إلينا

١٢- واعلمْ بأنَّ جيادنا ... آلينَ لا يقضينَ دينا

١٣- ونقدْ أبحنَا ما حميْتَ ... ولا مُبيحَ لما حمَيْنا [١].

فالمتأمل لألوان البديع في مثل هذه الأبيات يجد أنها موزعة توزيعاً دقيقاً في مساحة المعنى بحيث لا تشعر بها وإن كثرت بين ألوان البلاغة الأخرى فقد التزم الشاعر فيها الياء والنون في نهاية كل بيت وهو ما يسمى لزوم ما لا يلزم ثم مراعاة النظير في البيت الأول بين (التخويف والإذلال والحَيْن) وفي البيت الثاني بين (الزعم والكذب والمين)والطباق المعنوي في البيت الرابع بين قوله (نحمي الحقيقة) وبين (يسقط بين بين) لأنه بمعنى العجز، والجناس بين قوله (أبحنا ومبيح وبين حميت وحمينا) كما أن بين قوله:(أبحنا وقوله لا مبيح) طباق، وغيرها من ألوان البديع المختلفة التي جاءت عفوية فطرية في قمة الوفاء بالمعنى .

٢- الانسجام التام بين اللون البديعي، والمعنى الوارد في ركابه، وهو تابع للعنصر السابق ومنبثق منه ؛ لأن صدور اللون البديعي طبعياً لا تكلف فيه يحقق هذا الانسجام لصدور المعنى متلبساً بصنوه من الألفاظ كقول عبيد أيضا :

إذا تباشرك الهموم ... فإنها كال وناجز

ولقد تزان بك المجالس ....لا أغرُّ ولا علاكز [٢]

كالهندواني المهند ....هزه القرن المناجز [٣]

٣- يمتاز البديع في العصر الجاهلي بقوة تأثيره على النفس وخفته على السمع وتعلقه بالقلب مع رشاقته ولطفه؛ لأنه صادر عن القلب دون استكراه ولا تعمد وهذا من أكثر العوامل

---

(١) ديوان عبيد البرص / ١٤٢.

(٢) الأَغَرُّ من الرجال الذي أَخَذت اللحيَةُ جميعَ وجهه إلا قليلاً كأنه غُرّة (لسان العرب - / ٥ / ص ١١).

(٣) ديوان عبيد الأبرص / ٧٥ / والكال من كلأ الدين :تأخر والعلاكز الرجل الغليظ الشديد .

التي جعلت من بعدهم يكلفون به ويتتبعونه في كلامهم ويقلدونه وكلما أعقب جيل جيلا زايد عليه في أنواع البديع حتى صار البديع أكبر مضمار للتسابق واستعراض المهارات القولية في عصر ضعف الملكة وانحسار الحس اللغوي.

٤- قال الجرجاني عن موقف الجاهليين من استعمال البديع وتقليد المحدثين:(ولم تكن (العرب) تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع، والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض، وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد، وقصد فلما أفضى إلى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة، والحسن، وتميُّزها عن أخواتها في الرشاقة، واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه (البديع)فمن محسن، ومسيء، ومحمود، ومذموم ومقتصد،ومفرط)[1]

٥- من خصائص البديع الجاهلي أنه كان يتفق لهم في البيت بعد البيت، ولا يتواتر ولا يتصل في الأبيات كلها في القصيدة إلا نادراً ؛لأن اتصاله، وتواتره أمارة تكلف وهو ما شاع عند المتأخرين أما القدماء فقد كان يتفق لهم في البيت بعد البيت، ولا يطرد في أبيات القصيدة كلها وقد أشار قدامة بن جعفر إلى استعمال المتقدمين والمتأخرين للبديع وسبب قبوله أو رفضه وأثر إتقان الصنعة في جودته،وأن اتصاله وتواتره يدل على التكلف قال : (وأكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى ورموا هذا المرمى، وإنما يحسن إذا اتفق له في البيت موضع يليق به، فإنه ليس في كل موضع يحسن، ولا على كل حال يصلح، ولا هو أيضاً إذا تواتر، واتصل في الأبيات كلها بمحمود، فإن ذلك إذا كان، دل على تعمل وأبان عن تكلف)على أن من الشعراء القدماء، والمحدثين من قد نظم شعره كله، أو أبيات كثيرة منه منهم أبو صخر الهذلي، فإنه أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه إنه غير متكلف، وهو قوله:

وتلك هَيْكَلَةٌ خَوْدٌ مُبَتَّلَةٌ ... صفْرَاءُ رَعْبَلَةٌ في مَنْصبٍ سَنِمِ
عذْبٌ مُقَبَّلُهَا جَدْلٌ مُخَلْخَلُهَا ... كالدِّعْصِ أَسْفَلُهَا مَحْصُورَةُ الْقَدَمِ
سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا ... مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ عَلَى الْكَرَمِ

(١) الوساطة / ٣٧..

عِبْلٌ مُقَيَّدُها حَالٍ مَقَلَّدُهَا ... بضٌّ مُجَرَّدُهَا لَفَّاءُ في عَمَمِ
سَمْحٌ خَلائقُهَا دُرْمٌ مَرَافِقُهَا ... يَرْوَى مُعانقُهَا من بارِدِ الشَّبِمِ
كأنَّ مُعْتَقَةً في الدَّنِّ مُغْلَقَةً ... صَهْبَاءَ مُصْفَقَةً مِنْ رَابِئٍ رَذِمِ
شِيبَتْ بِمَوْهَبَةٍ من رأسِ مَرْقَبةٍ ... جَرْدَاءَ مَهْيَبَةٍ في حَالِقٍ شَمَمِ
خالَطَ طَعْمَ ثَنَايَاهَا وريقتها ... إذا يكون تَوالى النَّجْم كالنُّظُمِ [1]

فمن يتأمل هذه الأبيات يقف على كثير من ألوان البديع والتي طغى عليها الترصيع، وهو أن يتوخى الشاعر في شعره أو الناثر في نثره تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف [2]، ودقة صنعة الشاعر، ومهارته أكسبتها قبولا في النفس وميلا من القلب ولعل المعاني التي صاغها أبو صخر فيها، ولطفها كان لها كبير أثر في توفيقه، وإن كان أثر الصنعة لا يخفى لكثرة البديع فيه مما أوقعه في الجور على المعنى كما قرر أبو هلال العسكري في قوله :

عذْبٌ مُقَبَّلُهَا جَدْلٌ مُخَلْخَلُهَا ... كالدِّعْصِ أَسْفَلُهَا مَخْصُورَةُ الْقَدَمِ

قال : (كأن قوله : مخصورة القدم ناب عن موضعه غير واقع في موقعه، وبعده:

سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا ... مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ عَلَى الْكَرَمِ

وهذا البيت أيضاً قلق القافية، وبعده:

سَمْحٌ خَلائقُهَا دُرْمٌ مَرَافِقُهَا ... يَرْوَى مُعانقُهَا من بارِدِ الشَّبِمِ

هذا البيت ردئ لبعد ما بين الخلائق، والمرافق، وما بين الدّرم، والسمح، ولولا أن السجع اضطره لما قال: سمح وليس لعظم مرفقها حجم. وهذا مثل قول القائل لو قال: خلق فلان حسن، وشعره جعد. ليس هذا من تأليف البلغاء ونظم الفصحاء...) [3]

---

(١) نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر ت (٢٦٠) / ص : ٨٣/ ت : محمد عبد المنعم خفاجي / طبعة دار الكتب المصرية ــ بيروت .

(٢) مفتاح العلوم / ٤٣١ .

(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري / ٣٤٤/ ت: على محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم / المطبعة العصرية / الطبعة الأولى / ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٦ م .

وهكذا نرى أن طريق القبول في تعاطي البديع – الذي يكاد أن يجمع عليه النقاد، والأدباء – هو الطبع، وترك المعاني لتكتسي من الألفاظ ما تشاء، وألا يبيِّت الشاعر، أو الناثر في نفسه عزماً مسبقاً على طَرْق ألوان من البديع، وإذا أقدم على ذلك صاحب الصنعة المتسلح بالمهارة الذي له فضل ذوق في استخدام هذه الألوان فعليه ألا يكثر منها ولا يحرص على تواليها في أبياته لأن تلك علامة تكلف، وإسراف قلَّ من يستحسنه إذا سمعه ومن يتقنه إذا صنعه .

وخلال هذا العرض الموجز للبديع عند المتقدمين، وأهم ما يميزه نستطيع أن نتسمع صداه عند الإمام عبد القاهر، ونترسم خطاه فيما كتب، وفيما أبدع، ونلقي الضوء على أوجه التشابه والاختلاف، ومدى تأثر الإمام به، واصطباغ أسلوبه بتلك الروح السائدة في بيان أهلها مع اختلاف بسيط من طبيعة عصره، وفيض نفسه، وتنوع ثقافته، وسنرى خلال عرضنا لبديع الإمام تشابهاً كبيراً بل تطابقاً بينهما؛ لأن تراث الجاهليين كان رافداً من أهم الروافد التي استقى منها الإمام صائب رأيه وصقلت به موهبته، ونمى عليها ذوقه وعرض عليها معارفه في دروب البيان .

البديع في عصر الإمام عبد القاهر .

بلغت المنافسة في عصر الإمام عبد القاهر في القرن الخامس ذروتها في ألوان البديع من جهتين:
الأولى في التفنن في الاستخدام لأنواع البديع في النثر، والشعر.
والثانية : في ابتكار أنواع جديدة تضاف إلى البديع .

أما الناحية الأولى، وهي التفنن في استخدام أنواع البديع، فقد بلغت المنافسة فيها ذروتها بظهور جيل جديد من الشعراء ضم طائفة من النابهين ذوي المهارة ممن جمعوا مع الأدب والشعر كثيراً من علوم عصرهم أمثال أبي العلاء المعري(٣٦٣ : ٤٤٩ هـ) الذي نشأ في بيت علم ساعده في إتقان فنون القول مع فنون أخرى اختلطت في نفسه، وكان مردودها على شعره، ونثره، وأكثر فيهما من ألوان البديع، وخاصة ما يسمى بلزوم ما لا يلزم[1] حتى أنه وضع فيها مؤلفاً سمَّاه

(١) هذا النوع الذي سماه قوم الالتزام ولزوم ما لا يلزم ومنهم من سماه الإعنات والتضييق وهو في الاصطلاح أن يلتزم الناثر في نثره أو الناظم في نظمه بحرف قبل حرف الروي أو بأكثر من حرف بالنسبة إلى قدرته مع عدم التكلف وقد جاء في الكتاب العزيز في مواضع تجل عن الوصف كقوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) وكقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون) ومثله قوله تعالى (والليل وما وسق والقمر إذا اتسق) وأما الشعراء فأبو العلاء كان أكثرهم في هذا النوع التزاما حتى إنه صنع كتابا وسماه اللزوميات)(خزانة الأدب وغاية الأرب /المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري / ٢/٤٣٣/ت : عصام شعيتو / الناشر : دار ومكتبة الهلال – بيروت / الطبعة الأولى، ١٩٨٧ .

اللزوميات قال في مقدمته (وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف الأولى : أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها،والثانية: أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك، والثالثة: أن ألزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف منها قوله :

ما مَقامي إلّا إقامَةُ عانٍ كَيفَ أَسري وَفي يَدِ الدَهرِ أَسري
وَيَسارُ الفَتى يَمينٌ وَإِن كا نَ أَشَلّاً سامَ الأُمورَ بِيُسرِ
تَبِعَت تُبَعاً وَفي القَصرِ غالَت قَيصَراً وَانتَحَت لِكِسرى بِكَسرِ
وَطَوَت طَيِّئاً وَآدَت إِياداً وَأَصابَت مُلوكَ قِسرٍ بِقَسرِ
إِنَّ جِسراً عَلى المَنِيَّةِ حَزمٌ وَالبَرايا مِن عُبشَةٍ فَوقَ جِسرِ(١)

وقوله :

بحكمة خالقي طيّي ونَشْري .. وليسَ بمُعجزِ الخلاّقِ حَشري
وقد رَفَقَ الذي أوصى أناساً .. بعُشرٍ في الزّكاة، ونِصْفِ عُشرِ
إذا أشرَتْ أكفٌّ من رجالٍ .. فَما أولى أناملَهُمْ بأشر
أُحبُّكِ أيّها الدّنيا كغَيري .. وأشرانِي قِلاكِ، ولستُ أشري
ونهوى العَيشَ فيكِ مع الرّزايا .. وما طَوّلتِ من خمسٍ وعِشر
وهذا الدّهرُ بشّرَ بالمَنايَا .. فلِمْ فَرِحتْ ببِشْرٍ أُمُّ بِشْر؟
سُطورٌ، نحنُ نكتبُها، لَيالٍ .. مَداها كالمُدى غَرِيَتْ بقَشر (٢)

ومن الواضح البيِّن أنه ألزم نفسه فيها بأمور عدة أثقلت شعره، وفارقت الطبع، وأدخلت كثيراً منه في التكلف غلبت عليها فكرة استعراض القدرة التعبيرية، وإبراز الموهبة الشعرية، والتفنن في الألوان البديعية ؛لأن المبدع إذا وضع في عقله ابتداءً أن يستحضر لونا بديعيا بعينه سار خلف اللفظ الذي يحقق له هذا اللون، وصرف عنايته إليه مزاحماً المعنى في مساحة الفكر التي يجب أن يشغلها، وفي الخيال الذي يحلق به في سماء الإبداع فلا يسمو ذرا شرفه بل يتعثر في حلى البديع إلى قاع الإسفاف الذي لحق به كثير ممن أسرفوا في البديع .

(١) ديوان لزوميات أبي العلاء (اللزوميات لأبي العلاء المعري) ١ / ٥٩٩ / طبعة دار صادر – بيروت .
(٢) لزوميات أبي العلاء / ١ / ٥٥٥ .

ومن نوعية الشعراء الذين جمعوا العلم، والأدب، وتثقفوا بثقافة عصرهم ابن زيدون المخزومي الأندلسي (٣٩٤ : ٤٦٣ هـ) وقد استخدم ألوان البديع المختلفة مع الحكم والأمثال في قصائده، ورسائله لكنه بثّها بطريقة خادمة للمعنى مع خفة في السمع، وقبول في النفس وهو أقل تكلفا من غيره لغلبة عاطفته على علمه، ومن أشعاره التي جمعت بعض ألوان البديع :

ما عَلى ظَنّيَ باسُ يَجرَحُ الدَهرُ وَياسو
رُبَّما أَشرَفَ بِالمَر ءِ عَلى الآمالِ ياسُ
وَلَقَد يُنجيكَ إِغفا لٌ وَيُرديكَ احتِراسُ
وَالمَحاذيرُ سِهامٌ وَالمَقاديرُ قِياسُ
وَلَكَم أَجدى قُعودٌ وَلَكم أَكدى التِماسُ
وَكَذا الدَهرُ إِذا ما عَزَّ ناسٌ ذَلَّ ناسُ
وَبَنو الأَيّامِ أَخيا فٌ سَراةٌ وَخِساسُ
نَلبَسُ الدُنيا وَلَكِن مُتعَةٌ ذاكَ اللِباسُ (١)

هذا، وقد بلغ هذا الأمر مبلغه عند الحريري (ت ٥١٦ هـ) صاحب المقامات والتي تابع فيها من سبقه في غلبة ألوان البديع مع ضعف الملكة قال في مقدمة مقاماته (... وبعْدُ فإنّهُ قدْ جرَى بَعْضِ أَلديَةِ الأَدَبِ الذي ركدَتْ في هذا العصْرِ ريحُهُ. وخبَتْ مصابيحُهُ. ذِكْرُ المَقاماتِ التي ابْتَدعَها بَديعُ الزّمانِ. وعلاّمَةُ هَمَذانَ. رحِمَهُ اللهُ تعالى. وعَزا إلى أبي الفَتْحِ الإسكَنْدَريّ نشْأَتَها. وإلى عيسى بنِ هِشامٍ رِوايَتَها. وكِلاهُما مجْهولٌ لا يُعرَفُ. ونَكِرةٌ لا تتَعرّفُ! ...) (٢) وقد أشار إلى سبب تأليفه للمقامات التي استعرض فيها علمه، وأدبه في فنه بين الشعر، والنثر، وصار البديع أهم خصائص هذه المقامات، وكثر كثرة ظاهرة أربت على كل من سبقه، وكأنها خلصت لرصف أنواع البديع مع الإلغاز والتعمية وبذلك صارت عنده ألوان البديع لغير ما تراد له يدل عليه تركيب هذه

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله / ٢٧٣ / شرح وتعليق : على عبد العظيم /طبعة نهضة مصر .

(٢) المقامات للحريري (أبي القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري (ت٥١٠) ص : ١١ / الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .

المقامات وكمُّ الألوان البديعية التي تحويها كما يدل على ذلك سبب تأليف الحريري لها في قوله : (فأشارَ مَنْ إشارتُه حُكْمٌ. وطاعَتُه غُنْمٌ. إلى أنْ أُنشئَ مَقاماتٍ أتْلو فيها تِلْوَ البَـديعِ. وإنْ لَمْ يُـدْرِكِ الظّالِعُ شأوَ الضّليعِ. فذاكَرْتُهُ بما قيلَ فيمَنْ ألّفَ بينَ كَلمتَينِ. ونظَم بيْتاً أو بيتَينِ. واسْتقَلْتُ منْ هذا المَقامِ الذي فيه يَحارُ الفَهْمُ. ويفرُطُ الوهْمُ. ويُسْبَرُ غوْرُ العقْلِ. وتتَبَيّنُ قيمَةُ المَرْءِ في الفضْلِ. ويُضْطَرّ صاحبُه إلى أن يكونَ كحَاطِبِ لَيْلٍ. أو جالبِ رَجْلٍ وخَيْلٍ. وقلّما سلِمَ مكْثارٌ. أو أُقيلَ لهُ عِثـارٌ. فلمّا لَمْ يُسْعفْ بالإقالَةِ. ولا أعْفَى منَ المَقالَةِ. لبّيْتُ دعْوَتَهُ تلبيَةَ المُطيعِ. وبذَلْتُ في مُطاوَعَتِه جُهْـدَ المُستَطيعِ. وأنْشأتُ على ما أُعانيه منْ قَريحةٍ جامدةٍ. وفِطْنَةٍ خامدةٍ. ورَوِيّةٍ ناضِبَةٍ. وهُمومٍ ناصِـبَةٍ. خمْسينَ مَقامةً تحْتَوي على جدّ القَوْلِ وهزْلِه.) (١) كقوله:

زَيّنتْ زينَبٌ بقَدٍّ يقُدُّ ... وتَلاهُ ويْلاهُ نَهْدٌ يهُدُّ

جُندُها جيدُها وظَرفٌ وطَرْفٌ ... ناعِسٌ تاعِسٌ بحدٍّ يَحُدُّ

قدرُها قدْ زَها وتاهَتْ وباهَتْ ... واعْتَدَتْ واغتَدَتْ بخَدٍّ يخُدّ

فارَقَتْني فأرّقَتْني وشطّتْ ... وسطَتْ ثمّ نمّ وجْدٌ وجَدّ

فدَنَتْ فدَيْتُ وحنّتْ وحيّتْ ... مُغضَباً مُغضِياً يوَدّ يُوَدّ (٢)

وقد سمى هذه الأبيات بالمتائيم (جمع متآم وهي المرأة التي تأتي كل مرة إذا ولدت بتوءمين) ومن البين أن التكلف والاستكراه يحدوها ويتلوها وعلى ذلك تتابع كثير من الشعراء في تسابق واستعراض لمهارتهم القولية وثقافتهم مما أثقل كاهل الشعر وطمس نور الطبع وأخمد جذوة الارتجال الذي يهز نفس ويثير العجب وجعل كل غيور على تلك الفنون يضج من هذا التيار الذي ابتعد بتلك الفنون عن منبعها العذب فتعكرت .

---

(١) المقامات للحريزي (ت٥١٠) ص : ١١ .

(٢) المقامات للحريري ص : ١١١.

الناحية الثانية

في ابتكار أنواع جديدة تضاف إلى ألوان البديع

من المعلوم أن أول من صنف في البديع هو ابن المعتز، وكان مصطلح البديع لم ينفصل عن البيان ولم يتحدد، وقد جمع في كتابه ثمانية عشر محسناً بديعياً أطلق على بعضها البديع وهي خمسة منها ثلاثة من فنون البيان الأساسية وهي (الاستعارة، والتشبيه، والكناية بالإضافة إلى اثنين من فنون البديع وهما(التجنيس والمطابقة)، وبقية الألوان أطلق عليها (محاسن الكلام) وهي : الالتفات، ولاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج من معنى لمعنى، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والإفراط في الصفة، وحسن التشبيه، وإعنات الشاعر نفسه، وحسن الابتداءات .([1])

ثم جاء قدامة ابن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) بأربعة عشر محسناً هي (الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والتتميم، والمبالغة، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، المطابق،والتوشيح، والإيغال) ([2])وهو أول من مزج البديع بعلوم الفلسفة ولاسيما المنطق وقد بدا ذلك على صفحات كتابه([3])ثم جاء أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ)فعد خمسة وثلاثين محسنا قال أنه زاد فيها ستا على ما أورده سابقوه وهي (التشطير، والمحاورة، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف) .

ثم جاء ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) وألف كتابه العمدة، ووزعه على مائة باب جمع فيها ما استطاع أن يجمع مما كُتب قبله عن صناعة الشعر، ومسائل البيان، والبديع عند من سبقوه وقد عد من أنواع البديع ما يقرب من خمسة، وثلاثين نوعاً أضاف منها (الاتساع، والاطراد، ونفي الشيء

---

(١)ينظر البديع لابن المعتز / ص ٥٧ / ت : اغناطيوس كراتشقوفسكي – ليننغراد / طبعة مكتبة المتنبي ببغداد.

(٢) نقد السعر لأبي ألفرج قدامة بن جعفر ت (٢٦٠) / ص : ٥٥/ ت : محمد عبد المنعم خفاجي / طبعة دار الكتب المصرية ــ بيروت .

(٣) الصبغ البديعي / د: أحمد إبراهيم موسى / ١٤٦ / طبعة دار الكتاب العربي – القاهرة / ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

بإيجابه، والتفريع، والترديد، والتتبيع)وقد ظهر على بعضها التكلف ثم توالت المؤلفات في البديع في هذا العصر، وكلما جاء مؤلف حاول أن يزيد على من سبقه في هذه الألوان، وأن يبدي، ويعيد في المسميات لكي يُنسب إليه بعض هذه الألوان، وتسابق الكتاب في حصر الألوان البديعية، وابتكارها حتى تكلّف كثير منهم في ضم ألوان ليس وراءها طائل وهو ما سبق، وتنبأ به ابن المعتز في باكورة التأليف في هذا الفن في كتابه (البديع) حين قال : (ولعل بعض من قصَّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدِّثه نفسه وتمنِّيه مشاركتنا في فضيلته، فيسمي فناً من فنون البديع بغير ما سميناه به، أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً منثوراً، أو يفسر شعراً لم نفسره، أو يذكر شعراً قد تركناه، ولم نذكره إما لأن بعض ذلك لم يبلغ في الباب مبلغ غيره، فألقيناه، أو لأن فيما ذكرنا كافياً، ومغنياً)[1].

فانظر مدى نفاذ بصيرة الرجل وقدرته على قراءة الواقع فقد حدث ما توقعه فتوالى المؤلفون على البديع بالزيادة أو بتغيير المسميات أو بالتكلف في اختراع ألوان لا فائدة في كثير منها.

والإمام عبد القاهر يرصد هذه الحركة العلمية عن كثب ويرى جور الجائرين وحيف المغالين ما بين التأليف والاستخدام، وهو ماض إلى قصده لتحقيق هدفه خلال كتابيه لا يلوي على المؤلفين ولا يلوم المستخدمين إلا عند الإسراف والإجحاف الذي يجور على المعنى ويثقل العبارة فهو صاحب طبع سليم وذوق راق وهدف محدد مع أسلوب شديد التميز في التناول والعرض .

البديع عند الإمام عبد القاهر .

المتأمل لأسلوب الإمام عبد القاهر فيما كتب يجد أنه أسلوب فريد في تركيبه ومفرداته ثم إنه فريد في معانيه، وصيغته، وهناك اتصال وثيق بين صياغة الأسلوب، والمعنى العلمي الذي يتحدث عنه مع وضوح الفكرة، والإلحاح على تحقيقها مما يشير إلى عقلية فريدة في الفهم والإفهام.

---

(١) البديع لابن المعتز / ص : ٢ .

(فإذا كان العلم هو صورة المعلوم مأخوذة عنه بواسطة الإدراك كما تؤخذ الصورة الشمسية بالآلة المعروفة، فإن كان المعنى المنتزع من الجزئيات قانوناً كلياً يرشد إليها، فهو القاعدة، وإن كان صورة تناسبها، وتقربها من الفهم فهو المثل.

وإذا كانت القاعدة الكلية هي صورة إجمالية للمعلومات الجزئية، والأمثلة والشواهد صور تفصيلية لها ؛ فالتعليم النافع يكون بقرن الصور المفصلة بالصور المجملة إذا بالتفصيل تعرف المسائل وبالإجمال تحفظ في العقل، وبهذه الطريقة يجمع بين العلم، والعمل الذي يثبت به العلم وهي طريقة عبد القاهر ...فكلامه – رحمه الله – كله من آيات البلاغة فهو يعطيك علمها بمعانيه، وعملها بمبانيه، وبهذه المميزات فاق أسلوبه في كتبه كثيراً من كتب الفن لأنها تقتصر على سرد القواعد، والأحكام بعبارات اصطلاحية، تنكرها بلاغة الأساليب العربية ولا تذكر من الشواهد والأمثلة إلا القليل الذي أدلى به السابق إلى اللاحق، والأول إلى الآخر .[1]

فبالرغم من أنه تناول ألواناً بلاغية تحدَّث عنها من سبقه إلا أنه تناولها بطريقة مختلفة كشفت أبعاداً أخرى وظَّفها لشرح فكرته عن النظم التي سخرها بدورها لبيان الوسيلة لفهم كتاب الله، وهي فكرة جديدة في أسلوب جديد طريف حققا معاً التميز للإمام عن سابقيه، ولاحقيه وجعلت الأقلام التي تناولته بالحديث تحكم له– بالإجماع– بالعبقرية، والتفرد مع اختلافها في توصيفه منهجياً، فمن قائل أنه بلاغي صاحب نظرية في البلاغة، ومنهم من عده مؤسساً لعلم البلاغة، ومنهم من اعتبره ناقداً حصيفاً، ومنهم من عده أديباً، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على براعة في شتى دروب القول تحسب للإمام .

و حديث الإمام عن البديع صادر في إطار الكشف عن وجوه إعجاز القرآن في قضية النظم التي أفرغ الإمام فيها جهده .

فقد انطلق الرجل من إخلاص عميق لله ﷻ في دروب العلم، ومما يدلل على إخلاصه دقة متابعته للرسول ﷺ حتى في أسلوبه فالمتأمل لأسلوب الإمام يجد أنه كثير التكرار ليفهم عنه وهو مما

(١) ينظر أسرار البلاغة / مقدمة المحقق (الشيخ رشيد رضا) ص : ١٤ .

عرف عن الرسول ﷺ في حديثه عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه)(١)

كما أنه كان شديد الإلحاح في تبليغ المعنى المراد، وتأكيد الفكرة وإقناع المخاطب، وتلك خصيصة في البيان النبوي، ولست أقصد بذلك تشبيه أسلوب الإمام بأسلوب الرسول ﷺ تشبيه الشيء يقترب من الشيء فإني على يقين من أن كعب البلاغة النبوية عند منتهى طرف البصيرة منّا،ولكن أقصد أنه ترسَّم خطاه حتى صار من أقرب الناس شبهاً بأسلوبه .

وبهذا الإخلاص أخذ يبحث عن ثغر خالٍ من ثغور المسلمين ليثبر غوره، وينافح فيه بقلمه؛لأن همّه خدمة دينه ببيان وسائل فهم وجوه إعجاز القرآن الذي اختلط بلحمه وعظمه وفاض تأثيره العميق على أساليبه، ولم يكن همه مجرد التأليف في فنون البلاغة ؛لذلك لم يعرض الإمام عبد القاهر لكل ما تقدمه من ألوان البديع التي طرقها سابقوه،ليقرر بعد ما أضاف من عنده كما فعل قدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري وغيرهم ممن سبقوه، بل اختار من بينها ألوانا استدعاها غرضه من هذين الكتابين، ومما يميز الإمام فيما تناول من ألوان البديع وفيما استخدم في أساليبه طريقة بحثه في تلك الألوان، وأصول البحث التي قررها، والتي تكشف عن القيمة الحقيقية لتلك الألوان البلاغية بما يحقق الغرض المنشود منها، وهو ما سنعرض له في الصفحات التالية .

من أصول البحث عند الإمام عبد القاهر

أشار الإمام إلى جملة من الأمور يجب على المتعاطي لفنون القول، والناظر فيها أن يحرص عليها، ومنها :

– ضرورة التعمق في تتبع التفاصيل، وعدم الاقتصار على القول المجمل، تأمل قول الإمام، وهو يتحدث عن ضرورة التعمق في تتبع التفاصيل في بيان الفصاحة، وألا يكتفى فيها بالقول المجمل الذي لا يحقق الغاية، وما يجب على من ينظر في تلك النصوص من صبر، وتدبر في جزئياتها وكأنه يعلّم من بعده أصول البحث، والتنقيب الذي يثمر علماً، ويحقق غاية قال:(وإذا نظرتَ إلى

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي / جـ : ٥ / ص : ٦٠٠/ كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ /باب :في كلام النبي ﷺ / حديث ٣٦٤٠ / ت: أحمد محمد شاكر وآخرون / طبعة دار إحياء التراث العربي / بيروت .

الفصاحة هذا النظرَ وطلبَتها هذا الطلبَ احتجتَ إلى صبرٍ على التأملِ ومُواظبةٍ على التدبُّر وإلى همَّة تأبى لك أن تقنعَ إلا بالتَّمام وأن تَرْبَعَ إلاَّ بعدَ بلوغِ الغاية ومتى جَشِمْتَ ذلك وأبيتَ إلا أن تكونَ هنالك فقد أممتَ إلى غرضٍ كريم، وتعرَّضتَ لأمرٍ جَسيم وآثرتَ التي هي أتمُّ لدينكَ وفضلكَ وأنبلُ عندَ ذوي العقول الرّاجحة لك . وذلك أن تعرفَ حُجّةَ الله تعالى منَ الوجهِ الذي هو أضوأُ لها وأنوهُ لها وأخلقُ بأن يزدادَ نورُها سُطوعاً وكوكبُها طُلوعاً وأن تسلكَ إليها الطريقَ الذي هو آمَنُ لكَ منَ الشَّك وأبعدُ منَ الرَّيب وأصحُّ لليقين وأحرى بأن يُبلّغَك قاصيةَ التبيين)[1].

وهدفه من معرفة أسباب الفصاحة تفصيلاً من البداية، هو بيان الوسيلة التي يصل عن طريقها إلى القناعة المبنية على اليقين الناشيء عن بصيرة بأسبابه التي يتوصل إليها عن طريق معرفة الجزئيات لا عن طريق الوصف المجمل الذي لا يشفي ظمأ النفس، ولا يحقق اليقين الذي هو أتم للدين، وأنبل عند ذوي اليقين، وهو معرفة حجة الله على وجهها الحق دون ريب، ومعرفة سر الإعجاز الذي يحقق هذا، ولا يتأتى ذلك إلا بالوسيلة المناسبة وهي فقه اللغة وبيانها المرشد إلى كشف مزايا الأساليب وبيان معادنها وخصائصها قال الإمام : ((وجملةُ الأمر أنّه لا يَرى النّقص يدخلُ على صاحبهِ في ذلك إلا من جهةِ نقصه في علم اللُّغة لا يعلم أنَّ ها هُنا دقائقَ وأسراراً طريقُ العلمِ بها الرويَّةُ والفِكرُ ولطائفَ مُسْتقاها العَقلُ وخصائصَ معانٍ ينفردُ بها قومٌ قد هُدُوا إليها ودُلُّوا عليها وكُشفَ لهم عنها ورُفعتِ الحجبُ بينَهُم وبينَها وأنّها السَّببُ في أنْ عرضتِ المزيَّةُ في الكلامِ ووجَبَ أن يفضُل بعضُه بعضاً وأن يَبْعُدَ الشأوُ في ذلك وتمتَدُّ الغايةُ ويَعلوَ المُرتقَى ويَعِزَّ المَطلبُ حتّى ينتهيَ الأمرُ إلى الإعجازِ وإلى أن يخرُجَ من طَوْقِ البَشر) [2]

ثم إن النهج الذي انتهجه في تتبع المسائل، والغوص في خفايا المعاني، ودعا إليه منهج فريد يحقق نتيجة تقنع العقل، وتطمئن لها النفس، وتتلقاها بالقبول، ثم إن النص الذي ذكره الإمام يحتوي جملة من القواعد الجليلة في مجال البحث والتحليل إضافة إلى ما سبق، ومنها :

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ٣٧ .

(٢)دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ٧ .

قوله: (الصبر على التأمل) ليس مراده الصبر المجرد، ولكن صبر من نوع خاص في شيء خاص، لأنه يريد صبراً في التأمل الذي هو أصل في إدراك الأمور، والتأمل نفسه أمر يحتاج إلى إعمال العقل حال صفائه، ونظر في المسألة من جميع الوجوه، ثم تقليبها على مختلف جوانبها ليصل إلى النتيجة التي يبحث عنها .

ومنها قوله : (المواظبة على التدبر) والتدبر هو : النظر في دبر الأمور أي عواقبها، وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصرُّف بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب[1] وهذا التصرف بالنظر في العواقب يصبح عادة يواظب عليها صاحب النظر الدقيق والتي تعينه على إصابة المرمى، وإدراك الغاية التي تلوح خلف أستار التراكيب، ويودعها البليغ بين ثناياها، وكأن الإمام يريد من الباحث في فنون القول مراعاة حصول مراتب العلم في النفس [2] وعدم تخطّي أي مرحلة

---

(١) ينظر التوقيف على مهمات التعاريف / محمد عبد الرؤوف المناوي / ١٥٦، ١٦٧/ ت : د. محمد رضوان الداية / دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق / الطبعة الأولى، ١٤١٠.

(٢) مراتب حصول العلم في النفس هي : الشعور، ثم الإدراك، ثم الحفظ، وهو استحكام المعقول في العقل، ثم التذكر، وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، ثم الذكر، وهو رجوع الصورة المطلوبة إلى الذهن ثم الفهم، وهو التعلق غالباً بلفظ من مخاطبك، ثم الفقه، وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه، ثم الدراية، وهو المعرفة الحاصلة بعد تردد مقدمات، ثم اليقين، وهو أن تعلم الشيء، ولا تتخيل خلافه، ثم الذهن، وهو قوة استعدادها لكسب العلوم غير الحاصلة، ثم الفكر، وهو الانتقال من المطالب إلى المبادئ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب، ثم الحدس، وهو الذي يتميز به عمل الفكر، ثم الذكاء، وهو قوة الحدس، ثم الفطنة، وهي التنبه للشيء الذي يقصد معرفته، ثم الكيس، وهو استنباط الأنفع، ثم الرأي، وهو استحضار المقدمات، وإجالة الخاطر فيها، ثم التبين، وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثم الاستبصار وهو العلم بعد التأمل، ثم الإحاطة، وهي العلم بالشيء من جميع وجوهه، ثم الظن، وهو أخذ طرفي الشك بصفة الرجحان، ثم العقل، وهو جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة، والمدرك إن كان مجرداً عن المادة كإمكان زيد، فإدراكه تعقل أيضا، وحافظه ما ذكر أيضا، وإن كان مادياً، فإما أن يكون صورة، وهي ما يدرك بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، فإن كان مشروطاً بحضور المادة، فإدراكه تخيل، وحافظها الخيال، وإما أن يكون معنى، وهو ما لا يدرك بإحدى الحواس الظاهرة، فإدراكه توهم، وحافظها الذاكرة كإدراك صداقة زيد وعداوة عمرو، وإدراك الغنم عداوة الذئب، ولا بد من قوة أخرى متصرفة تسمى مفكرة، ومتخيلة... ينظر (الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية / تأليف: أبو

من مراحل التتبع السليم للمعنى بالنظر العقلي في النص الأدبي مع الصبر، والتأمل، والتدبر، وإعطائه الوقت اللازم لاكتمال عملية الإدراك الصحيحة، ولذلك نجده في مواطن أخرى يؤكد على ذلك، ويلح على الباحث لأنه يعلم بالتجربة أنه الطريق الوحيد للوصول إلى الإقتناع الذي يحقق اليقين كقوله : (ثم راجعْ فكرتَك، واشْحَذْ بصيرتَك، وأحسِنِ التأمُّل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظر ...) (١)

ومنها مراجعة الفكرة، والتي أشار إليها في هذا النص وهي من الأمور المهمة في مجال البحث في خصائص التراكيب ؛ لأن النظرة الأولى لا تحيط بجملة الحقيقة، وإنما يصل إليها بعد الفكرة، ومراجعتها مرات عديدة، والصبر عليها .

ومن جملة الأمور التي أشار إليها الإمام في أصول البحث (شحذ البصيرة)، ويقصد بشحذ البصيرة تنقيتها مما يكدر صفوها، ويؤثر على حسن استقبالها للمعاني، ولعل الإمام يقصد بشحذ مع هذا تجديد الإخلاص، وتحديد الهدف، والتركيز على الغاية، وتوجيه الطاقة العقلية إليها، والتي تلمح الدقائق الخفية، والعلاقات البينية التي تقوم في التراكيب .

أيضا نبه إلى ضرورة علو الهمة، ونفاسة الغاية، وهو يشير بذلك إلى استشعار قيمة الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه ويسخِّر له هذه المقدرات العقلية، والجسدية، ويضع فيه أنفَسَ ما لديه، وهو وقته، وحشاشة نفسه فلابد أن يسعى لتحصيل أعمق المعاني، وألا يرضى بالظواهر التي يستوي في فهمها مع غيره وهو ما أشار إليه بقوله (...وإلى هِمَّةٍ تأبى لك أن تقنعَ إلا بالتَّمام وأن تَرْبَعَ إلاَّ بعدَ بلوغِ الغاية) .

كما نص على أهمية الإخلاص لله تبارك وتعالى، فهو روح العمل ومادة بقائه ؛ لأن تعلقه بالخالق الخالد يعطيه مسحة من هذا الخلود لارتباطه به، وهذا أمر واضح بيِّنٌ في علوم العلماء المخلصين وأعمالهم التي لم يمحها كر الغداة، ومر العشي قال : (ومتى جَشِمْتَ ذلك وأبيتَ إلا أن

البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي/ ٢٨ / ت: عدنان درويش – ومحمد المصري / دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / ٢٢ .

تكونَ هنالك فقد أممتَ إلى غرضٍ كريم، وتعرَّضتَ لأمرٍ جَسيم وآثرتَ التي هي أتمُّ لدينكَ وفضلكَ وأنبلُ عندَ ذوي العقول الرّاجحة لك . وذلك أن تعرفَ حُجّةَ الله تعالى منَ الوجه الذي هو أضوأُ لها وأنوهُ لها وأحلقُ بأن يزدادَ نورُها سُطوعاً وكوكبُها طُلوعاً وأن تسلكَ إليها الطريقَ الذي هو آمَنُ لكَ منَ الشَّك وأبعدُ منَ الرَّيب وأصحُّ لليقين وأحرى بأن يُبلّغَك قاصيةَ التبيين)

كما حملت عبارته الدعوة إلى المجاهدة، والمكابدة :وهي من الأمور التي نص عليها الإمام في غير موضع من كتابيه وبدت خلال دعوته للصبر وطول التأمل، ومتابعة التفاصيل الدقيقة، وشحذ البصيرة، وعلو الهمة، وهي في مجملها عين المجاهدة، والمكابدة .

والمتأمل لألوان البديع التي اتفق عليها البلاغيون قديما، وحديثا يجد أنها تتفق في عصرها الأول من عدة أوجه :

منها أنها تكسب الكلام بهجة وجلالا وجمالا، وأنها تحقق الطرافة، والخلابة، والعجب لاسيما مع دقة المأخذ، وحسن التناول، وأن الأسلوب الذي يحوي بعضها عفويا يتميَّز بأنه أسلوب مسيطر، وسيطرة الأسلوب لها عوامل عديدة منها فنون البديع المتسقة مع المعنى والخالية من التكلف .

ولذلك اصطلح على تسمية تلك الألوان بالبديع، وبذلك تطابق المعنى اللغوي للكلمة مع المعنى الاصطلاحي ؛لأن مفهوم الكلمة اللغوي من بدع الشيء يبدعه، (والبَديعُ المُحْدَثُ العَجيب والبَديعُ المُبْدِعُ وأبدعْتُ الشيء اخْتَرَعْته لا على مِثال، والبَديع من أَسماء الله- تعالى-لإِبْداعِه الأَشياء وإِحْداثه إِيَّاها وهو البديع الأَوّل قبل كل شيء ويجوز أَن يكون بمعنى مُبدِع أَو يكون من بَدَع الخَلْقَ أَي بَدَأَه والله تعالى كما قال سبحانه بَديعُ السماواتِ والأَرض أَي خالقها ومُبْدِعُها فهو سبحانه الخالق المُخْتَرِعُ لا عن مثال سابق.

قال أَبو إِسحاق يعني أَنه أَنشأَها على غير حِذاء ولا مثال إِلا أَنَّ بديعاً من بَدَع لا من أَبْدع وأَبدعَ أَكثر في الكلام من بَدَع ولو استعمل بدَع لم يكن خطأً فَبَديعٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعل مثل قدير بمعنى قادر وهو صفة من صفات الله تعالى لأَنه بدأَ الخلق على ما أَراد على غير مثال تقدّمه

...وسِقاء بَديع جديد[1] فالجديد العجيب من شأنه أن يكسب الكلام حسنا وجمالا، والمخترع على غير مثال سابق يكسبه خلابة، وطرافة .

وألوان البديع تحقق هذا – خاصة في كلام المتقدمين – وقد تحدَّث الإمام عبد القاهر عن أثر العجيب المخترع على النفس – عند حديثه عن قوة الصنعة الساحرة (قال: فالاختفال والصنعة في التصوير التي تروق السامعين وتروعهم، والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذّاق بالتخطيط والنقش أو بالنحت والنقر فكما أن تلك تعجب وتخلب وتروق وتؤنق، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه، ولا يخفى شأنه .)[2] وإن كان ما عند المتقدمين من البديع لا صنعة فيه بل كان طبعاً وارتجالاً .

أما عن تعريف البديع الذي اصطلح عليه البلاغيون بعد عبد القاهر فقد عرَّفه الخطيب القزويني بأنه : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة.[3]

وهذا التعريف الذي ذكره الخطيب القزويني، وتبعه عليه كثير من البلاغيين جعل هذا الفن ذيلاً تابعاً لغيره من علوم البلاغة الأخرى، وعلم تزيين لظاهر الكلام لا ينهض أن يكون فناً مستقلاً كأخويه البيان، والمعاني فإذا تأملت التعريف وجدته يقرر ذلك من عدة أوجه:

١- أنه جعله علم تحسين للكلام، وبهذا يكون علم تزيين في ظاهر الفظ .

٢- أنه جعله بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، وبذلك يجعله بعد علم المعاني، وأنه لا ينظر فيه إلى مطابقته لمقتضى حال المخاطب ؛لأن الخطيب جعل هذه الوظيفة لعلم المعاني على مقتضى تقسيمه، ومن ثَمْ جرَّد منها علم البديع .

---

(١) لسان العرب لابن منظور جـ ٨ / ص : ٦ / مادة (بدع)

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / ٣٤٢ .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني / ١/ ٥٢.

٣- أنه جعله بعد رعاية، وضوح الدلالة التي عدها الخطيب مقتضى علم البيان ووظيفته ومعنى ذلك أنه لا ينظر إليه عند الرغبة في الدلالة على معنى معين، وحاصل هذه الأمور أن علم البديع لا ينهض أن يكون علما مستقلا بل تابعا لغيره، وأنه علم تزيين لا يدخل في صميم المعاني، قال : (وإذا قد عرفت معنى البلاغة في الكلام، وأقسامها، ومراتبها فاعلم أنه يتبعها، وجوه كثيرة ليست راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال، ولا إلى الفصاحة تورث الكلام حسناً وقبولاً)(١) وقد تبعه في ذلك كثير من شراح التلخيص.

قال سعد الدين التفتازاني في شرحه لعبارة الخطيب :((وتتبعها) أي بلاغة الكلام (وجوه أخرى) سوى المطابقة. والفصاحة (تورث الكلام حسنا) وفي قوله (تتبعها) إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضى خارج عن حد البلاغة، وإلى أن هذه الوجوه إنما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة، والفصاحة وجعلها تابعة لبلاغة الكلام دون المتكلم لأنها ليست مما تجعل المتكلم متصفا بصفة)(٢) وقال ابن يعقوب المغربي :(عن قول الخطيب :(وتتبع بلاغة الكلام وجوه أخرى) أي أحوال عارضة للكلام سوى الفصاحة والمطابقة لمقتضى الحال تورث تلك الوجوه الكلام حسنا زائد على الحسن الذاتي الحاصل بالبلاغة)(٣).

فجعل حسن البديع حسناً عرضياً زائداً على الحسن الذاتي الحاصل من البلاغة، وكأن فنون البديع خارجة عن أصل فنون البلاغة، وهذا ما نقضه الإمام عبد القاهر من قبل؛ لأن هؤلاء بنوا حكمهم على ألوان البديع بأنها علم تحسين للكلام لأنهم رأوها كذلك في استعمال المتأخرين الذين كانوا يستوفون المعنى ثم يعيدون ويبدون فيما صنعوا لكي يوشوه بألوان البديع التي تسترق السمع، وتلفت الانتباه، وقد بيَّن الإمام صلتها الوثيقة بالمعنى، ثم إن جاز أن يطلق ذلك على أنواع

---

(١) الإيضاح للخطيب القزويني / ١ / ٤٧ .

(٢) مختصر سعد الدين – ضمن شروح التلخيص – ٤ /٢٨٣ .ت : نعيم زرزور / دار الإرشاد الإسلامي – بيروت .

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي – ضمن شروح التلخيص ٤ / ٢٨٣ .

البديع اللفظي الذي يتميز بجرسه الرنان، وبروزه في العبارة فلا يمكن أن ينسحب ذلك على بقية ألوان البديع المعنوي .

ثم إن من يتأمل البديع بكل ألوانه في استخدام المطبوعين، ولاسيما الجاهليين يدرك أن هذا التعريف فيه تجاوز؛ لأن أولئك المطبوعين لا يفكرون مرتين عند القول كما يفعل المتكلف الذي يجد المعنى ثم يبحث عن اللفظ، وإنما يفكرون مرة واحدة، فيأتي اللفظ بمعناه لا فاصل بينهما في الميلاد، فكيف يكون علم تحسين تابع لغيره إذا كان هو الحامل للمعنى، فإذا أردت أن تبدله بغيره ذهب المعنى في ركابه، أو كاد.

لذلك نجد العالم الذوّاقة لدقائق البيان الإمام عبد القاهر في بداية كتابه أسرار البلاغة يدفع هذا الوهم الذي يمكن أن يطوف ببعض الأوهام قال عند حديثه عن مرجع الفضل بين اللفظ والمعنى : (وها هنا أقسام قد يُتَوهَّمُ في بَدْءِ الفكْرة، وقبلَ إتمام العبرة، أنَّ الحُسْنَ والقبحَ فيها لا يتعدَّى اللفظَ والجَرَسَ، إلى ما يُناجِي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حُقِّق النظر مَرجِعٌ إلى ذلك، ومُنْصَرَفٌ فيما هنالك، منها: التجنيس والحشو)[1]. فقد أكد أن تلك الألوان التي يوهم ظاهرها أن مرجع الحسن فيها إلى اللفظ أن حسنها راجع إلى معناها .

وقد تابعه في ذلك بهاء الدين السبكي قال :(والحق الذي لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق، ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن الإيراد بطرق مختلفة، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأدل برهان على ذلك أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى اشتمال شيء منها على التطبيق، ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق، والإيراد بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه، والكناية التي هي طرق علم البيان هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين)[2] ورأي الإمام عبد القاهر، وبهاء الدين السبكي رأي معتدل يستند إلى الواقع الأدبي، ويعتمد على

(١) أسرار البلاغة / ٦ .

(٢) عروس الأفراح لابن السبكي – ضمن شروح التلخيص – / ٤ / ٢٨٤ .

التذوق الفني لأصول ألوان البديع التي تتحدر من صميم النفس المبدعة بعيدة عن التكلف، والشطط .

لفظ البديع في قاموس عبد القاهر

البديع بمعنى الغريب .

ورد لفظ البديع عند الإمام في مواضع عديدة من كتبه أدت معاني معينة بحسب سياقها ومراد الإمام منها، فمن المواضع التي وردت في دلائل الإعجاز في الحديث عن وجه غرابة الاستعارة قوله (ومن بديعِ الاستعارةِ ونادرِها – إلا أنّ جهَةَ الغَرَابة فيه غيرُ جهتِها في هذا قولُ يزيدَ بنِ مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ يصفُ فَرساً له وأنه مؤدَّبٌ وأنه إذا نزلَ عنه وألقَى عِنانهُ في قَرَبوسِ سرجِه وقفَ مكانَه إلى أن يعودَ إليه – الكامل – :

عَوَّدْتُهُ فيما أزورُ حَبائبي ... إهمالَه وكذاكَ كلُّ مُخاطرِ

وإذا احْتَبى قَرَبوسُه بعنانِه ... علكَ الشَّكيمَ إلى انصرافِ الزَّائرِ[1]

فلفظ البديع في نص الإمام ورد بمعنى الغريب ولكن وجه الغرابة أورث الاستعارة حسنا بحسن التناول وطرافة المأخذ الذي أخرج فيه الشاعر المعنى عن طريق الاستعارة وقد وضّح الإمام وجه الغرابة بقوله (فالغرابةُ هاهُنا في الشّبهِ نفسِه وفي أن استدراك أنَّ هيئةَ العِنان في موقعِه من قَرَبوسِ السرجِ كالهيئةِ في موضعِ الثّوب من رُكبةِ المُحْتَبي)[2]

البديع بمعنى المخترع على غير مثال سابق .

استخدم الإمام عبد القاهر البديع بمعنى الطريف والمخترع على غير مثال سابق أو على مثال سابق مع التجديد في العرض والتناول، وهو بذلك لم يخرج عن مفهوم الكلمة اللغوي أو الاصطلاحي عند غلماء البلاغة وقد ورد هذا المعنى في حديث الإمام عن تصرف الناس في المعاني بين السذاجة في التناول وبين دقة المأخذ وبراعة الصنعة وحسن التصرف قال :(أنَّ سبيلَ المعاني سبيلُ أشكالِ الحُليِّ كالخاتَم والشَّنْف والسِّوار . فكما أنَّ من شأن هذه الأَشكالِ أن يكونَ الواحدُ

(١) دلائل الإعجاز / ٧٥ .

(٢) دلائل الإعجاز / ٧٥ .

منها غُفْلاً ساذجاً لم يعمل صانعُه فيه شيئاً أكثرَ من أنْ يأتيَ بما يقعُ عليه اسمُ الخاتم إن كان خاتماً والشَّنْف إن كان شَنفاً وأن يكون مصنوعاً بديعاً قد أغربَ صانعُه فيه . كذلك سبيلُ المعاني أن ترى الواحدَ منها غُفلاً ساذجاً عامياً موجوداً في كلام الناس كلّهم . ثم تراهُ نفسَه وقد عَمَدَ إليه البصيرُ بشأن البلاغة وإحداثِ الصُّوَر في المعاني فيصنعُ فيه ما يصنعُ الصَّنَعُ الحاذق حتى يُغرِبَ في الصنعة ويُدِقَّ في العمل ويبدعَ في الصياغة)[1] .

فلفظ (بديع) معناه العجيب الذي انتحى فيه صاحبه منحى مختلفا لم يسبق إليه .

كما استخدم الإمام لفظ البديع بمعنى العجيب الفريد في حسنه عندما تحدث عن ضرورة معرفة خصائص التركيب وعدم الاقتصار على الوصف المجمل في معرفة سر الفصاحة .

قال :(لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون في معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصنَّع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الدّيباج وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع)[2]

البديع بمعنى النادر والمستحيل

ورد لفظ البديع عند الإمام عبد القاهر بمعنى النادر المستحيل وذلك لدى حديثه عن سر تأثير التمثيل والمعاني التي يأتي في عقبها وأن منها الغريب الذي يدَّعى امتناعه، واستحالته، فيأتي التمثيل ليقرب المعنى، ويجعل له نظيرا في الممكنات وينصبه دليلا عليه قال: (إن المعاني التي يجيء التمثيل في عَقِبها على ضربين غريب بديع يمكن أن يخالَف فيه، ويُدَّعَى امتناعُه واستحالةُ وجوده، وذلك نحو قوله :

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنت منهم ... فَإنَّ المِسكَ بعضُ دَمِ الغَزَالِ

(١) دلائل الإعجاز / ٣٧ .

(٢) دلائل الإعجاز /٣٧.

وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام وفاقهم إلى حدٍّ بَطَل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهةٌ ومقاربةٌ، بل صار كأنه أصلٌ بنفسه وجنسٌ برأسه، وهذا أمرٌ غريب)[1]

لفظ البديع يشمل فنون البلاغة عند الإمام .

ورد لفظ البديع عند الإمام في حديثه عن فنون البلاغة وقد ضمنه فنون البلاغة الثلاثة، فأطلق لفظ البديع على مباحث أدخلها من بعده في البيان أو المعاني فقد قال في مقدمة الأسرار (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد ولا تصويب ....)[2] فأدخل الاستعارة في مفهوم البديع كما أدخل الاعتراض في حديثه عن البديع وسمّاه الحشو وأشار إلى سبب ذمه وإنكاره لخلوه من الفائدة، وانه قد يصادف موقعا يكون له فيه القبول إذا حقق فائدة غير منتظرة وأصاب معنى غير مرجو قال:(وأما الحشو فإنما كُرِهَ وذُمَّ وأُنكر ورُدَّ، لأنه خلا من الفائدة، ولم يَحْلَ منه بعائدة، ولو أفاد لم يكن حشواً، ولم يُدْعَ لغواً، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القَبُول أحسنَ موقعَ، ومُدْرَكاً من الرّضَى أجزلَ حظّ، وذاك لإفادته إيَّاك، على مجيئه مجيءَ ما لا يعوّلَ في الإفادة عليه، ولا طائل للسامع لديه، فيكون مَثَلُه مَثَلَ الحَسَنة تَأتيك من حيث لم ترقبها، والنافعة أتتك ولم تحتسبها، وربّمَا رُزِقَ الطُّفَيْليُّ ظَرْفاً يحظَى به حتى يحلَّ محلَّ الأضياف الذين وقعَ الاحتشاد لهم)[3].

أيضا أطلق الإمام لفظ البديع وقصد به علم البديع وفنونه

في حديثه عن تكلف بعض المتأخرين وإسرافهم في ألوان البديع بما يضر المعنى قال:(وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع على أن

(١) أسرار البلاغة / ١٢٢ .

(٢) أسرا البلاغة للإمام عبد القاهر / ٢٠ .

(٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / ١٩(

ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ويخيل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء (١)

ومن الملاحظ في نص الإمام موقفه من المتأخرين في شغفهم بالبديع وإكثارهم إلى حد جاروا فيه على المعنى وخرجوا به إلى حد التكلف .

ويمكن أن نستشف منه أيضا سبباً من أسباب عدم تأليف الإمام في فنون البديع على غرار ما فعل في قضية النظم، وهو ولوع المتأخرين به بين التأليف فيه والإسراف في استخدامه بما يجني على المعنى ويؤدي إلى التعمية على المخاطب مما حدا بالإمام إلى اتخاذ موقف معاكس لهؤلاء في محاولة لإحداث توازن بين اللفظ والمعنى .

كما يوضح النص سطحية النظرة وسوء الفهم الذي حدا بكثير من المتأخرين إلى الظن بأن البراعة والبلاغة في الجمع بين ألوان البديع في البيت الواحد وإن تحقق ذلك بإفساد المعنى والتعقيد المعنوي الذي يوقع السامع في التخبط في فهم المعنى .

كما يعكس نص الإمام غياب الطبع في تعاطي فنون القول والميل إلى الصنعة من غير دربة ولا دراية.

التكلف ليس قاصراً عند الإمام على الإسراف بل يشمل ترك البديع عندما يتطلبه المقام .

وإذا كان الإمام يرى أن تكلف شيء من ألوان البديع يخرج بالعبارة عن حد البلاغة إلى الاستكراه، فإنه يرى – أيضا – أن ترك لون من ألوان البديع حين يتطلبه المقام يعد تكلفا يخرج بالكلام عن حد البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال قال عند حديثه عن إنكار الأعرابي على عامل أنكر عليه قوله :(حُلّت ركابي وشققت ثيابي وضربت صحابي) فقال له العامل : أو تسجع أيضا ؟) فقال له فكيف أقول ؟) قال الإمام :(وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ ولم يَرَه بالسجع مخلا بمعنى أو محدثا في الكلام استكراها أو خارجا إلى تكلف واستعمال لما ليس بمعتاد في غرضه.

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر / ٩ .

وقال الجاحظ : (لأنه لو قال حلئت إبلي أو جمالي أو نوقي أو بعراني أو صرمتي لكان لم يعبر عن حق معناه، وإنما حلئت ركابه فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ؟،وكذلك قوله :وشُقّقت ثيابي، وضربت صحابي) قال الإمام عبد القاهر :(فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضي اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يَقُد المعنى نحو التجنيس والسجع بل قاده المعنى إليهما وعثر به عليهما حتى أنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر)[1].

وهذا النص يقرر أن التكلف في هذه الفنون ليس قاصرا على تطلبها دون استدعاء المعنى أو الاستكثار منها، وإنما عدَّ تركها عند الحاجة إليها وتَطَلُّبِ المعنى لها وجها آخر من وجوه التكلف، وهذا مما يؤكد اعتدال النظرة وإدراك حاجة المعنى من غير إفراط في استخدام البديع ولا تفريط بسبب ما دار حوله .

ثم يقرر الطريقة المثلى في تعاطي فنون القول بأن يترك المعاني تكتسي من الألفاظ ما يناسبها دون أن يتكلف لها ألوانا قد لا تناسبها بمعنى أنه لا يجب أن يبيت نية في استخدام لون معين يقود المعنى إليه فيخالف بذلك الطبع، والسجية إلى التكلف والاستكراه الذي يجنح إلى الخطأ، والتعرض للذم يقول :(ولن تجد أيمن طائرا وأحسن أولا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان وأجلب إلى الاستحسان من ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ؛فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ...) [2]

وخلاصة ما سبق أن الإمام قسم المتعاطين للبديع ثلاثة أقسام:

الأول : قسم مطبوع يرسل المعاني إرسالا فتكتسي من الألفاظ ما تكتسي وتستدعي من ألوان البديع ما تستدعي وهم أهل سجية وطبع يحميهم من الاستكراه ويجنبهم الخطأ ويكفيهم الذم

(١) أسرا البلاغة ص : ١٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص : ١٤ .

وعلى ذلك أهل الجاهلية وصدر الإسلام من الشعراء والخطباء وبعض من تبعهم من أهل الطبع في إنشاء القول .

الثاني :قسم من المتكلفين الذين شغفوا بألوان البديع دون طبع يعينهم أو دربة تقيهم الخطأ فجاروا على المعاني وهم بسبيل ذلك فوقعوا في خطأ أسلمهم إلى الذم .

الثالث :قسم من المتكلفين لهم مهارة في الصناعة وقدرة على الصياغة تمكنهم مما أرادوا من اجتلاب ألوان البديع، ونثرها في مساحة المعنى بطريقة تبدو خادمة له وهؤلاء يجيدون مرة ويسيئون مرات لأن الصنعة لا تواتيهم دائما كالطبع، وقد ضرب الإمام مثالا لهؤلاء بقوله : (فإن ساعدك الجد كما ساعد في قوله :

ناظِراهُ فيما جنى ناظِراه أوْدَعاني أمُتْ بِما أوْدَعاني[1]

وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله :

وَأَنجَدتُمُ مِن بَعدِ إِتهامِ دارِكُم فَيا دَمعُ أَنجِدني عَلى ساكِني نَجدِ [2]

وقوله :

هُنَّ الحَمامُ فَإِن كَسَرتَ عِيافَةً مِن حائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمامُ [3]

فذاك وإلا أطلقت ألسنة العيب، وأفضى بك طلب الإحسان من حيث لم يحسن الطلب، إلى أفحش الإساءة وأكبر الذنب، ووقعت فيما ترى من ينصرك، لا يرى أحسن من أن لا يرويه لك، ويود لو قدر على نفيه عنك...)

فالمتأمل للأبيات التي استشهد بها الإمام يجد أن دقة الصنعة وتمكن صاحبها منها أخرج اللفظ مخرجه إذا كان مطبوعا وأنقذ قائله من الذم وأدخله باب الاستحسان فقوله (ناظراه) من المناظرة والمجادلة، والثانية من النظر والبصر وبينهما جناس مستوف من سحر البديع يستلذه السمع وترتاح له النفس، وهو في قمة الوفاء بالمعنى وكذلك بين قوله:(أو دعاني) في بداية الشطر الثاني،

---

(١) البيت في أسرار البلاغة صـ ٧ وفي الدلائل صـ ٤٢٣ غير منسوب، وينسب لأبي الفتح البستي وغيره .

(٢) ديوان أبي تمام ./ ٢/ ٨٧.

(٣) ديوان أبي تمام./ ٢ / ١٣٢.

وبين (أودعاني في نهايته) لأن الأولى مكونة من كلمتين(أو) العاطفة للتخيير وفعل الأمر (دع)، والثانية كلمة واحدة بمعنى (تركا في) يقصد أثر عيني المحبوب فيه وحسن هذه المجانسة صادر من كون الكلمة الثانية جاءت في صورة الأولى مما يوهم السامع ابتداءً أنها تكرار فإذا أدرك معناها كان لذلك موقعه في نفسه وتمكنه في قلبه .

وكذلك ما صنع في البيت الثاني وحسن تصرفه فيه حيث جانس بين (الحمام)- بفتح الحاء -الطائر المعروف وبين الحمام - بكسر الحاء- وهو الموت ولا يتضح لطف التجنيس إلا بذكر البيتين قبله - كما ذكر الشيخ محمود محمد شاكر- وهما قوله :

أتَصَعصَعَت عَبَراتُ عَينكَ أن دَعَت ... وَرقاءُ حينَ تَصَعصَعَ الإظلامُ
لا تَنشجَنَّ لَها فَإنَّ بُكاءَها ... ضَحِكٌ وَإنَّ بُكاءَكَ استِغرامُ
هُنَّ الحَمامُ فَإن كَسَرتَ عِيافَةً ... مِن حائِهِنَّ فَإنَّهُنَّ حِمامُ [1].

كما يشير نص الإمام إلى قوة الحركة النقدية في عصره وأن من أساء القول واجه نقداً لاذعاً كما يشير إلى الصراع النقدي بين التأييد، والمعارضة الذي يؤكد ازدهار الحركة النقدية مما زاد في رغبة الطامحين لكسب ثقة الناقدين، واستمالتهم بالتفنن في جلب ألوان البديع، الأمر الذي أوقع كثيرا منهم في العيب، يفهم ذلك من قوله :(فذاك وإلا أطلقت ألسنة العيب)وقوله :(ووقعت فيما ترى من ينصرك، لا يرى أحسن من أن لا يرويه لك ويود لو قدر على نفيه عنك...)

وقد مثّل الإمام للوجه الآخر في استخدام البديع بحال أبي تمام عندما تكلف ألوانا من البديع ليذكر اسما لموضع مر به أو شخصا أغرم أو أغري به يقول الإمام : (وذلك كما تجده لأبي تمام إذا أسلم نفسه للتكلف، ويرى أنه إن مر على اسم موضع يحتاج إلى ذكره، أو يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون أن يشتق منه تجنيسا، أو يعمل فيه بديعا، فقد باء بإثم، وأخل بفرض حتم من نحو قوله :

سيف الإمام الذي سمّته هيبَتُهُ ..... لَمّا تخرَّم أهل الكفر مُختَرِما
إنَّ الخَليفَةَ لَمّا صالَ كُنتَ لَهُ ... خَليفَةَ المَوتِ فيمَن جارَ أو ظَلَما

---

(١) ديوان أبي تمام .٢/ ١٣٢

قَرَّت بِقُرّانَ عَينُ الدينِ وَاشتَتَرَت بِالأَشتَرَينِ عُيونُ الشركِ فَاصطُلِما [1].

وقد أشار الشيخ أبو موسى في قول الإمام عبد القاهر السابق إلى أنه قصد بقوله (فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها) إلى الاستعمال الحقيقي بمعنى أن اللفظ جاء مستعملا فيما وضع له في اللغة وبقوله (ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها) إلى الاستعمال المجازي بمعنى أن اللفظ جاء مستعملا في غير ما وضع له في اللغة وفي هذا تأكيد على أن الطبع يعمل في المجاز عمله في الحقيقة بل إن التفاوت في المهارة بين شاعر وشاعر وكاتب وكاتب يبدو أكثر في الاستعمال المجازي لأن الخيال لا حدود له بينما الاستعمال الحقيقي محدود بحدود اللغة وأنه(أي الإمام) فسر المعرض والحلى والزينة وما جرى مجراها بدلالة المعاني على المعاني كما في التمثيل والاستعارة والكناية[2].

أيضا لا يجب على الناظر في لون من الفنون عند الإمام أن يغفل عن الغرض الذي صدر في بابه والمعنى الذي ورد في ركابه .

الإمام لا يعارض صنعة البديع ولكن بشروط .

نظرة الإمام للقضايا النقدية والآراء البلاغية نظرة معتدلة حكيمة خالية من الإفراط أو التفريط في المعارضة أو التأييد، لذلك نجد آراءه أقرب إلى الفطرة السليمة والذوق الخالص فلم ينجرف في التيار المعارض لذم صنعة البديع على الإطلاق وإنما فرَّق القول فيه بين ما خرج عن المطلوب في الاستعمال الصحيح وبين ما ورد موافقا للفطرة متقبلا في الطباع قال:(فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه، وانتقاصا له وتعويقا دونه، فانظر إلى خطب الجاحظ في أوائل كتبه، هذا والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع، فإنها تُروى وتُتناقل تناقل الأشعار، ومحلها محل النسيب والتشبيب من الشعر الذي هو كأنه لا يراد منه

---

(١) ديوان أبي تمام . ٢/ ١٤٥.....

(٢) ينظر مدخل إلى كتابي عبد القاهر / د: محمد محمد أبي موسى ص : ١٣١ .

إلا الاحتفال في الصنعة، والدلالة على مقدار شوط القريحة والإخبار عن فضل القوة والاقتدار على التفنن في الصفة قال في أول كتاب الحيوان ([1]).

ونص الإمام فيه إشارة إلى مصدر من مصادره ومرجع له فيما يقرر من آراء، وفيما يضع من قواعد، وهم من أطلق عليهم (العارفين بجواهر الكلام)ولعله أراد بهم أهل الطبع وأهل الذوق والبصيرة من النقاد والعلماء المتقدمين والمتأخرين، وقّد أشار إلى الجاحظ كواحد منهم، لأن الإمام لا يتعصب لمتقدم على حساب متأخر لأنه لا ينظر إلى الشخص ولكنه ينظر إلى العمل فإن ارتقى في مستواه الفني إلى الحد المطلوب جعله موضع عنايته ومحل نظره، والمتأمل لشواهد الإمام يجدها من مختلف العصور بعكس ما كان عليه كثير من النقاد والعلماء الذين كانوا يتعصبون للقديم على الحديث كما ورد عن إسحاق الموصلي أنه قال أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرةٍ إليكِ سبيلُ ... يُرْوَ منها الصَّدَى ويُشْفَى الغليلُ

إنْ ما قلّ منك يكثُر عندي ... وكثيرٌ ممن تحبّ القليلُ

فقال : هذا الديباج الخسرواني هذا الوشي الإسكندراني لمن هذا ؟ فقلت له إنه ابن ليلته فتبينت الحسد في وجهه وقال أفسدته أفسدته أما إن أثر التوليد فيه لبين[2]

وقد كانت تلك النظرة الموضوعية عند بعض النقاد ممن سبقوا الإمام وعاصروه كابن سنان الخفاجي(٤٦٦هـ) الذي رفض أن يجعل التقدم في الزمان مقياسا يقاس به الشعر والنثر قال : (ذهب قوم من الرواة وأهل اللغة، إلى تفضيل أشعار العرب المتقدمين على شعر كافة المحدثين ولم يجيزوا أن يلحقوا أحداً ممن تأخر زمانه بتلك الطبقة وإن كان عندهم محسنا، واختلفوا في علة ذلك. فزعمت طائفة من جهالهم، أن العلة فيه هي مجرد التقدم في الزمان، واستمر في الترتيب فجعلوا الشعراء طبقات بحسب تواريخ أعصارهم.

وقال قوم منهم: السبب في ذلك أن المتقدمين سبقوا إلى المعاني في أكثر الألفاظ المؤلفة وفتحوا طريق الشعر وسلك الناس فيه بعدهم، وجروا على آثارهم، فلهم فضيلة السبق التي لا

---

(١) أسرار البلاغة / ٩ .

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني / ٥ / ٣٢٨ / ت : سمير جابر / الطبعة الثانية / دار الفكر / بيروت .

توازيها فضيلة ولا توازنها مرتبة، وإذا كان غيرهم قد استفاد منهم وأخذ ألفاظهم وأكثر معانيهم فلن يكون في الرتبة لأعقابهم، وإذا كان مقصراً عنهم فشعره دون أشعارهم.

وقالت طائفة أخرى: إن العلة في تفضيل أشعار المتقدمين على أشعار المحدثين أن هذه الأشعار المتقدمة كانت تقع من قائلها بالطبع من غير تكلف ولا تصنع الأشعار المحدثة تقع بتكلف وتعمل، وما وقع بالطبع أفضل مما صدر عن التكلف. قالوا: لهذه العلة استدل بأشعار المتقدمين دون أشعار المحدثين، واحتاج هؤلاء كلهم في نقد الشعر إلى معرفة قائله قبل أن يظهر لهم مذهب فيه (١) وقد رد ابن سنان على هؤلاء وبيَّن خطأهم وأشار في كتابه سر الفصاحة إلى الأمور التي يرى أنها المعيار المناسب في الحكم على القول بالاستحسان أو القبح، وهي نظرة موضوعية في النقد البناء الذي يقوم على أسس سليمة وقواعد علمية ينتج عنها حكم سليم كما أشار إلى أهل الاعتدال في الحكم على الكلام مقررا

كلامهم ومؤيدا لمذهبهم قال (وذهب غير هؤلاء من أهل العلم بالشعر فقال: إن الطرق في نقد الشعر ما قدمناه من نعوت الألفاظ والمعاني، فأما قائله وتقدم زمانه أو تأخره فلا تأثير له في ذلك، لأن القديم كان محدثاً والمحدث سيصير قديما، والتأليف على ما هو عليه لا يتغير، وفي المحدثين من هو أشعر من جماعة من المتقدمين وفي المتقدمين من هو أشعر من جماعة من المحدثين. وإلى هذا كان يذهب أبو عثمان الجاحظ، وأبو العباس المبرد، وأبو عبادة البحتري، وأبو العلاء بن سليمان آنفاً وهو الصحيح الذي لا يعترض العاقل فيه شك ولا شبهة وسنتكلم على ما تعلقت به تلك الطائفة من الشبه الفاسدة)(٢).

وهذه النظرة المعتدلة في الحكم الموضوعي على الشعر كانت تضم طائفة كبيرة من كبار الأدباء واللغويين والشعراء منهم – كما ذكر ابن سنان – الجاحظ والمبرد والبحتري، وأبو العلاء وغيرهم مما يدل على قوة هذا المذهب، وانتشاره ؛ لأنه مذهب المنصفين الذين يتبنون منهجا علميا

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي / ٢٧١ / ت: عبد المتعال الصعيدي / ١٣٨٩هـ ١٩٦٩ م / مكتبة علي صبيح – مصر .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان / ٢٧١ /وما بعدها .

في النقد، والمفاضلة بين شاعر، وشاعر، أو كاتب، وكاتب، وقد تبعهم الإمام عبد القاهر فلم ينظر إلى الشاعر أو الناثر خلال تقدم عصره، أو تأخره، وإنما نظر إلى عمله مجردا عن التحيز فإن ارتقى في مستواه الفني كان محل عنايته، والشواهد الشعرية، والنثرية التي حفلت بها مؤلفات الإمام تؤكد ذلك فقد استشهد بشعر القدماء، ونثرهم كما استشهد بشعر المحدثين، ونثرهم ممن سبقوه، أو عاصروه مما يدل عمليا على ما أشرنا إليه، كما أنه كان لا ينظر إلى العمل الفني من ناحية شهرة صاحبه، أو خموله، فقد روى للمشهورين، وللمغمورين حتى أنه كان يستشهد بأقوال مجهولين، أو بأقوال غير منسوبة لمعين، فيقول قالت العرب، وهو ما يؤكد اعتدال نظرة الإمام، ويبشر بسلامة حكمه النقدي، ويعلل لإصابته في أحكامه العلمية، ونظرياته البيانية .

أما الأمور التي أشار إليها الإمام في نصه، والتي يجب أن تتوافر عند تعاطي فنون البديع فمنها :

أ- سلامة المعنى وصحته بحيث يكون نظر الشاعر أو الناثر عليه ابتداءً فسلامته تمامه وحسنه وصحته بأن يكون مقبولا في الفطرة والوقع .

ب- ألا يحمله اللون البديعي على لَيِّ المعنى لموافقته فيجور بذلك عليه .

ت- ألا يؤدي استخدام البديع إلى انتقاص المعنى لانصراف المتكلم إلى ألوان البديع .

ث- ألا يؤدي استخدام البديع إلى التعمية على المعنى واستغلاقه، وصعوبة فهمه.

تحليل الإمام لنص الجاحظ :

عرض الإمام لنص الجاحظ في أول كتاب الحيوان كنموذج لأهل المعرفة بجواهر الكلام الذين يحسنون التصرف في فنون القول فلا يستخدمون البديع إلا في موضعه اللائق قال الجاحظ :(جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة سببا وبين الصدق نسبا وحبب إليك التثبت وزينْ في عينك الإنصاف وأذاقك حلاوة التقوى وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة)[1]

(١) الحيوان لجاحظ / المحقق: عبد السلام هارون / طبعة : مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ - م .

قال الإمام عبد القاهر (فقد ترك أوّلاً أن يوفّق بين الشبهة و الحيرة في الإعراب، ولم يَرَ أن يَقْرن الخلاف إلى الإنصاف، ويَشْفَعَ الحق بالصدق، ولم يُعْنَ بأن يَطْلُب لليأس قرينةً تصل جناحَه، وشيئاً يكون رَديفاً له، لأنه رأى التوفيق بين المعاني أحقُّ، والموازنة فيها أحسنَ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ؛ ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أَوْلى من أن يَدَعها، لنُصْرَة السجع وطلب الوزن، أولادَ علّة، عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا في الظواهر، فأما أنْ يَتَعَدَّى ذلك إلى الضمائر، ويُخْلص إلى العقائد والسَّرائر، ففي الأقلّ النادر ...)(١) وتحليل الإمام لما قاله الجاحظ يقرر عدة أمور :

١- أن نظر البليغ أولا إلى سلامة المعنى .

٢- حرصه على قوة الصلة بين تلك المعاني وتسلسلها .

٣- قوله (ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد) كلمة عميقة الدلالة بالغة الأثر في تحديد نقطة التقاء اللفظ بالمعنى في اللحظة الأولى في عقل المبدع، وهذه النقطة هي لحظة التكوين والتي تتشكل عندها وعلى وفقها طبيعة اتصال اللفظ بالمعنى، وتشير إلى ضرورة عدم التدخل في هذا الميلاد وكأنها عملية طبيعية لا يجب أن يقحم فيها ما قد يفسدها بحيث يخرج اللفظ متلبسا بمعناه وقت خطوره ببال منشئه وتلك حقيقة الطبع الذي لا تكلف فيه حيث يترك المعنى ليختار اللفظ الأليق به وأن المعنى حين يتولد في نفس اللحظة التي يتولد فيها اللفظ يجعلهما كالأخوة الأشقاء في شدة شبه أحدهما بالآخر من ناحية ومن أخرى في قوة الصلة بينهما .

٤- الفصل بين اللفظ والمعنى في الوجود يوقع في التكلف حين يتولد المعنى متلبسا بلفظه فيستبدله بلفظ رنان في ظاهره أجوف في باطنه مما يؤدي إلى تباعد بينها كما يوجد بين أبناء العلات من بعد في الشبه وضعف في الصلة بالقياس إلى الأشقاء .

ألوان من البديع تحدث عنها الإمام

١- الجناس :

---

(١) أسرار البلاغة / ١٠ .

تحدث الإمام عن الجناس عند حديثه عن مرجع الفضل والمزية بين اللفظ والمعنى وهو يشير إلى أقسام من الكلام ودروب من القول توهم في ظاهرها أن الحسن أو القبح يتعلق باللفظ دون المعنى، ومدخل حديث الإمام يشير من البداية إلى أن هذه الألوان التي سيتحدث عنها جزء من قضية كلية يسعى إلى تقريرها وبيانها وليس هدفه أن يتحدث في ألوان البديع ولذلك لم يتحدث عن حدودها وأنواعها وغير ذلك مما يستلزمه المنهج العلمي الذي لا يخفى عن الإمام وقد تناول الجناس بالحديث ليصحح خطأ يقع في بعض الأفهام عن ألوان من البديع يوهم ظاهرها أنها تستمد حسنها من جرس اللفظ دون الالتفات إلى المعنى قال:(وها هنا أقسام قد يُتَوهَّمُ في بَدْءِ الفكْرة، وقبلَ إتمام العِبرة، أنَّ الحُسْنَ والقبحَ فيها لا يتعدَّى اللفظَ والجَرَسَ، إلى ما يُناجِي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حُقّق النظر مَرجِعٌ إلى ذلك، ومُنْصَرَفٌ فيما هنالك، منها: التجنيس والحشو)[1].

وقد سبق الإشارة إلى ذلك وخلاصة ما قرره في التجنيس أمور منها:

١ – أن مرجع الحسن أو القبح في الجناس لا يرجع إلى اللفظ وحده .

٢– ألا يكون الجامع بين المعنيين بعيداً ؛ لأنه حينئذ يدل على التكلف، والتعمل في اجتلابه من واد بعيد .

أنواع من الجناس تحدث عنها الإمام

تحدث الإمام عن بعض ألوان الجناس في معرض حديثه عن سر تأثير الجناس وما فيه من خلابة قال (واعلم أنّ النكتة التي ذكرتها في التجنيس، وجعلتُها العلّةَ في استيجابه الفضيلة وهي حُسْن الإفادة، مع أنّ الصورة صورةُ التكرير والإعادة وإن كانت لا تظهر الظهورَ التامَّ الذي لا يمكن دَفْعُه، إلا في المستوفَى المتفق الصورة منه كقوله:

ما مات من كَرَم الزمانِ فإنه ... يَحْيَى لدَى يَحْيَى بن عبد اللّه

أو المرفُوّ الجاري هذا المَجْرَى كقوله: " أودَعانِي أمتْ بما أوْدَعاني "، فقد يُتَصَوَّر في غير ذلك من أقسامه أيضاً، فمما يظهر ذاك فيه ما كان نحو قول أبي تمام:

يَمُدُّون من أيدٍ عَواصٍ عَواصِمٍ ... تَصُولُ بأسْيافٍ قَوَاضٍ قَواضِبِ

---

(١) أسرار البلاغة / ٧ .

وقول البحتري:

لئن صَدَفتْ عنَّا فرُبَّتَ أنفُس ... صَوادٍ إلى تِلك الوجُوه الصَّوادف .

تحدث الإمام في النص السابق عن نوعين من الجناس وهما الجناس المستوفي والمرفو أما الجناس المستوفي، فهو: أن يكون اللفظان المتفقان من نوعين كاسم وفعل والبيت الذي استشهد به وقع فيه الجناس في قوله (يحيا ليحيا) فالأولى اسم، والثانية فعل وصورة الكلمتين واحدة ومن هذه النقطة تحدث المفارقة التي هي سر تأثير الجناس لأن المستمع ينخدع بها عن الفائدة فإذا ما أدرك اختلاف المعنيين حقق ذلك عنده عدة فوائد منها:

١- تقرير المعنى بطريق آنس للنفس وأجل وقعا

٢- إدراك النشوة بالمعنى بعد فهم الغاية والمرمى .

٣- تشبيت المعنى بارتباطه بهذا الشعور الذي يملأ أقطار النفس .

٤- يوفر الجناس نوعاً من الانتباه ؛ لأنه يجذب السمع، فيقطع المخاطب عن شواغله حتى يقف على أصل المعنى .

وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى سبب تأثير الجناس عند حديثه عن مرجع المزية في استحسان الكلام بين اللفظ والمعنى قال : (أترك استضعفتَ تجنيس أبي تمام في قوله:

ذَهَبَت بِمُذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوت .... فِيهِ الظُّنُونُ: أَمُذْهَبٌ أم مُذْهَبُ

واستحسنتَ تجنيس القائل: " حتى نَجَا من خَوفِهِ وَمَا نَجا " وقول المحدَث:

ناظِراه فيما جَنَى ناظِراه ... أوْ دَعاني أمُتْ بما أودعَاني

لأمرٍ يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيتَ الفائدة ضَعُفَت عن الأوّل وقويتَ في الثاني؟ ورأيْتَك لم يزدك بمُذْهب ومُذهب على أن أَسْمَعَكَ حروفاً مكررةً، تروم فائدة فلا تجدُها إلا مجهولةً منكرةً، ورأيتَ الآخر قد أعَادَ عليك اللفظةَ كأنه يخدعُك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يَزِدْك وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فبهذه السريرة صار التجنيس – وخصوصاً المستوفَى منه المُتَّفَقَ في الصورة – من حُلَى الشّعر، ومذكوراً في أقسام البديع.(١)

(١) أسرار البلاغة / ٧ .

وقد ألحق به المرفو في هذا التأثير والمرفو هو : هو أن يكون أحد الركنين جزءا مستقلا والآخر جزأ من كلمة أخرى وقد استشهد له بقول الشاعر(أوْ دَعانِي أمُتْ بما أَودعَانِي) لأن الأولى مكونة من حرف العطف (أو) وفعل الأمر (دع) والثانية فعل ماض (أودعاني) بمعنى ترك وتأثيرهما في النفس متقارب.

والفائدة التي أشار الإمام إليها والتي يحققها الجناس التام والمرفو تتحقق أيضا في غيرها من الأقسام بوجه ما، وقد أشار إلى الجناس الناقص، وهو ما نقصت فيه حروف أحد اللفظين عن الآخر، مع اتفاق الباقي في النوع والهيئة والترتيب وبين سر تأثيره في النفس وحسن موقعه في العقل (وذلك أنك تَتوهم قبل أن يردَ عليك آخرُ الكلمة كاليم من عواصم والباء من قواضب، أنها هي التي مَضَت، وقد أرادتْ أن تجيئَك ثانيةً، وتعودَ إليكَ مؤكّدَةً، حتى إذا تمكن في نفسك تمامُها، ووعى سمعُك آخرَها، انصرفتَ عن ظنّك الأول، وزُلْتَ عن الذي سبق من التخيُّل، وفي ذلك ما ذكرتُ لك من طلوع الفائدة بعد أنْ يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تُغالَطَ فيه حتى ترى أنه رأس المال)

كما أشار إلى الجناس المذيل، وهو أن تختلف الكلمتان بزيادة حرف كقولهم: أوجال، وآجال، وعوارف ووارف، وقيمة هذا الجناس في المعنى الذي يلوح للعقل، وكأنه متماثل، وسرعان ما يبدو بخلاف ما ترآى، وبصورة أسرع من التي تحدث في الجناس التام بالإضافة إلى تأثيره على السمع، وسهولته على اللسان الذي يعمل في جهة واحدة .

وقد أشار إلى ذلك الإمام في قوله :(فأما ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا وذلك أن تختلف الكلمات من أوّلها كقول البحتري:

بسيوفٍ إيماضُها أوجالُ ... للأعادي ووقعُها آجال

وكذا قول المتأخر:

وكم سبقَتْ منه إلَيَّ عوارفٌ ... ثنائي من تلك العَوارف وَارِف

وكم غُررٍ من بِرّه ولطائفٍ ... لَشُكْرِي على تلك اللّطائِف طائفُ

وذلك أنّ زيادة عوَارِف على وارف بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة في الجملة، فإنه لا يبعد كلّ البعد عن اعتراض طرفٍ من هذا التخيُّل فيه، وإن كان لا يقوى تلك القوةَ، كأنك ترى أن اللفظة أعيدت عليك مُبْدَلاً من بعض حروفها غيرُه أو محذوفاً منها، ويبقى في تتبّع هذا الموضع كلامٌ حقُّه غير هذا الفصل وذلك حيث يوضع)[1].

وقد أشار الإمام إلى مراتب الجناس،ودرجات التأثير فيها وأن المعنى الذي يترآى للنفس والخيال الذي يلوح في العقل نوعان : الأول ما يقوى في العقل حتى يصير اعتقاد وذلك لقوة الشبه بين الكلمتين بحيث تكون إحداهما في نفس صورة الأخرى كما مر في الجناس التام والجناس المرفو، فيتوهم السامع أنها الأولى فإذا ما وقر المعنى في نفسه ووعاه قلبه أدركته لذة وعلاه العجب وكان لها في نفسه فضل تمكن .

والنوع الثاني : لا يبلغ في العقل هذا المبلغ وإنما يلوح له من جانب ويخفى عنه من جانب، وكأنه يداعبه، ويلاعبه قبل أن يصل به أحد الشاطئين شاطئ المعنى الأول الذي لم يغادره وشاطئ المعنى الثاني الذي لم يصل إليه فإذا تم المعنى وأدركه السامع كان لذلك أثره في نفسه وهو ما يحدثه الجناس الناقص،والجناس المذيل وقد أشار الإمام إلى ذلك في قوله (فالذي يجب عليه الاعتماد في هذا الفنّ، أن التوهُّم على ضربين: ضربٍ يستحكم حتى يبلُغ أن يصيرَ اعتقاداً، وضربٍ لا يبلغ ذلك المبلغ، ولكنه شيءٌ يجري في الخاطر، وأنت تعرف ذلك وتتصور وَزْنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشَبَهَ التامَّ؛ والشيئين يشبه أحدُهما بالآخر على ضرب من التقريب، فاعرفه)[2]

جناس الحرف الواحد .

أشار الشيخ أبو موسى إلى نوع من الجناس يشبه أثره حفيف الرياح الناعمة، ونسمات الربيع اللينة أطلق عليه (جناس لم يثغر بعد)، وهو ما اتفقت فيه بعض الكلمات الثلاثية في حرف واحد، وقد فتح له باب هذه المسألة قول الإمام عبد القاهر بعد حديثه عن الجناس (ويبقى في تتبع هذا الموضع كلام حقه غير هذا الفصل وذلك حيث يوضع) وأخذ إشارة الإمام عبد القاهر عندما

(١) أسرار البلاغة / ١٢ .

(٢) أسرار البلاغة / ١٩ .

تعرض للحديث عن ضروب التوهم في درجات المشابهة في الجناس فقال:(وضرب يجري في الخاطر) قال الشيخ أبو موسى وأحسب أنه يدخل في الثاني الذي يجري في الخاطر هذا التجانس الـذي لم يثغر بعد كما في قوله :(وإذا الوُحوشُ حُشرت) و(سبح اسم ربك الأعلى)إلى آخر ما قدمناه .

ثم قال (أي الإمام عبد القاهر) :(وأنت تعرف ذلك وتتصور وَزْنه إذا نظرت إلى الفـرق بـين الشيئين يشتبهان الشَبَهَ التامَّ؛ والشيئين يشبه أحدُهما بالآخر على ضرب من التقريب، فاعرفه)(١) الشبه التام مثل سميته يحيي ليحيا، والذي على ضرب من المقاربة مثل لاحت ملامحه (وعليه عقدت عوذي) وكان الشكر للكرماء خصلا) وإذا كنت تتردد في ذلك فراجع أصول هـذه الكلمـات وهي(على وعقد وعاذ) و(كان وشكر وكرم) وهي ثلاثية واتفقت في حرف ولو أنها اتفقـت في حرفين وقلنا على وعلم وعلق، وكتم وكتع لكانت من الجناس الاصطلاحي بمعنى أن الاشتراك في الثلثين جناس اصطلاحي فهل تقدر الاشتراك في ثلث أصوات الكلمة وتجعـل و(كـان الـشكر للكرماء) مثل :(وصار الشكر للأجواد)، وتجعل و(عليه عقدت عوذي) مثـل:(وربطـت عليـه شيمي؟) أم أننا لو فعلنا ذلك كان إهدارا لشيء من حلاوة الكلام، وعذوبته، ورنينه، ونغمه ؟ وقد قلت إنه إذا لم يكن جناس قد بلغ رشده فلنعتبره جناساً لم يثغر بعد، أو تعتبره مضغة مخلقة أو غـير مخلقة وإن لم يمكن فلنعتبره علقة وهكذا ولنا فيه قبل الميلاد فسحة (٢)

فقد فهم الشيخ أبو موسى من كلام الإمام السابق أن هناك أمورا تتعلق بالجناس تركهـا الإمام عبد القاهر لموضعها، ولكن لم يمهل حتى يقررها وبنى على إشارة الإمام فهمه لهذا اللون الذي تحيط بجرسه ورنينه المعرفة ولا تدركه الصفة وهو من صميم الجناس ولا ينبغي أن تقدر قيمة هـذا اللون.

وقد أشار الشيخ أبو موسى إلى فضل التعبير بعبارة يسكنها هذا النغم الرقيق مثل:(عليـه عقدت عوذي) الذي يشبه السحر وبين التعبير المغسول عن هذا النغم مثل:(ربطت عليه شـيمي) وكيف يهدر مثل هذا اللون اللطيف في حين أنهم ألحقوا بالجناس أشكالا ملؤها التكلف وألوانا من

---

(١) أسرار البلاغة / ١٩ .

(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر / ١٢٢ .

البديع ليس لها كبير فائدة قال الخطيب بعد أن عرض لألوان البديع (هذا ما تيسر بإذن الله تعالى جمعه وتحريره من أصول الفن الثالث وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنفين، منها ما يتعين إهماله لعدم دخوله في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين إلى الخط دون اللفظ مع أنه لا يخلو من التكلف ككون الكلمتين متماثلتين في الخط. وكون الحروف منقوطة أو غير منقوطة ونحو ما لا أثر له في التحسين كما يسمى الترديد أو لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين)(١)

أما مثل هذا اللون من الجناس الذي يلوح، ويهفهف في خفة لا يكاد يلحظ شكلا ولكنه أقوى أثرا من كثير من ألوان البديع التي اخترعها المتأخرون وتفننوا فيها، وليس لها كبير فائدة، أمر آخر في هذا اللون من النغم الخفي، والذي يعتمد حرفا واحداً في ملاحظة الجناس وهو أن ملمح هذا الخفيف، ونوع هذا النغم يتحدد عن طريق نوع الحرف فكل حرف له خفيف خاص، وله رنين متميز، وجرس يرجع إلى طبيعة مخرجه، وطريقة نطقه، ومن هنا تجد تنوعا واسعا لأنغام هذا اللون يتنوع بها أثره تأمل قول الشاعر:

لمنْ جِمالٌ قبيلَ الصُّبحِ مزمومهُ ... ميمّمات بلاداً غيرَ معلومَهْ
عالينَ رقماً وأنماطاً مظاهرةً ... وكلّة بعتيقِ العقلِ مرقومَهْ
من عبقريٍّ عليها إذ غدوْا صبحٌ ... كأنّها منْ نجيعِ الجوفِ مدمومَهْ
كأنّ ظعنهمُ نخلٌ موسَّقةٌ ... سودٌ ذوائبها بالحملِ مكمومَهْ
فيهنَّ هندٌ وقدْ هامَ الفؤادُ بها ... بيضاءُ آنسةٌ بالحسنِ موسومَهْ (٢)

تأمل تكرار الميم في البيت الأول (لمن – جمال – مزمومة – ميممات – معلومة) ودقق في جرس هذا الحرف الذي يخرج من الشفة ويصير إلى الخياشيم للغنة التي فيها وكأن الشاعر يصب فيها حزنه للفراق فيتمتم به ليصب مشاعره المكبوتة وحيرته بعدهم وقد بدأ بإعلان هذا الشعور بهذا الاستفهام الذي يدل على الحيرة والتخبط (لمن جمال ...؟) ساعده في ذلك حرف الميم بجرسه.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة / ٦ / ١١٨ .
(٢) ديوان عبيد الأبرص / ١٣٤ .

ثم انظر إلى القاف في البيت الثاني (بعتيق – العقل – مرقومة) ثم انظر إلى النون في الثالث (كأن – ظعنهم – نخل) وقد جاءت النون في نهاية الأولى وتوسطت الثانية، وتصدرت الثالثة وهي حرف مجهور شديد متسفّل منفتح ذو غُنّة (١)وكأنها أنين صدره كلما صدرت كلمة من صدره قفز إليها، وفي البيت الرابع تجد الهاء في الشطرة الأولى (فيهن – هند – هام – بها)هي حرف رخو مهموس خفي ضعيف وكأنه يحكي بطبيعة صوته حالة ضعفه وما يعانيه في حبها والهيام بها.

ثم السين في الشطر الثاني(آنسة – بالحسن – موسومة) وهو حرف صفير خرج به من الحديث عن اسمها وهيامه بها والتي سيطر عليها حرف الهاء الذي يحكي ضناه إلى صوت السين الذي علا في حديثه عن جمالها، وكأنه نشط في إبراز محاسنها التي هي سبب هيامه .

تأمل قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

أيدري الرّبع أيّ دم أراقا ... وأيّ قلوب هذا الرّكب شاقا ؟!

لنا ولأهْله أبداً قلوبُ ... تَلاقَى في جسوم ما تَلاَقى

وما عَفتِ الرياحُ له محلاً ... عفاهُ مَنْ حدا بهمُ وسَاقَا

فليتَ هوى الأحبَّةِ كان عدلاً ... فحمَّل كلَّ قلبٍ ما أطاقا

وقد أخذ التّمامَ البدرُ فيهم ... وأعطاني من السَّقم المحاقا

وبين الفرعِ والقدمين نورٌ ... يقودُ بلا أزمَّتها النِّياقا

وطرفٌ إن سقى العشّاق كأساً ... بها نقصٌ سقانيها دهاقا

وخصرٌ تثبتُ الأبصارُ فيه ... كأنَّ عليه من حدقٍ نطاقا

سَلي عَنْ سِرَتي فَرَسي ورُمحي ....وَسَيْفي والهَمَلَّعَةَ الدِّفَاقَا(٢)

---

(١) اللباب في علل البناء والإعراب / أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري/٢/٤٦٤ / ت: غازي مختار طليمات / دار الفكر – دمشق / الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

(٢) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / ١/ ٢٩٤ / ت : مصطفى السقا وآخرون /طبعة مصطفى البابي الحلبي – سنة ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .

تأمل توزيع حرف السين في البيت الأخير في قوله (سلي – سيريّ – فرسي – سيفي) وكيف أشاع صوت الصفير المنبعث من تكرار السين نغماً خاصاً في البيت يأثر النفس، وجرساً يطرب له السمع مما يمنح الأسلوب سيطرة مؤقتة على حواس المخاطب وسيطرة مستمرة بتثبيت المعنى في عقله وهو ما يسعى إليه الشاعر في نفس المحبوبة فهو يُدلُّ بتفرده وأنه الفارس الفرد والشجاع الذي يخوض المخاوف وحده وإن كان في البيت جناس اصطلاحي إلا أن شيوع هذا الحرف في كثير من الكلمات أكسبها هذا التأثير .

ثم انظر في نفس البيت إلى الخفيف الذي أحدثه تكرار حرف الفاء في قوله (فرسي – سيفي – دفاقا) فهذا النغم الذي يبثه هذا النوع من تجانس الحروف بجرسها، ويتنوع بتنوع الحروف لأن لكل حرف جرساً خاصاً به، ثم إنه يتنوع أيضا بحسب طريقة توزيع هذا الحرف في الكلمة من ناحية وفي العبارة من ناحية أخرى، ثم إن التبادل الذي يحدث بين تكرار حرف السين وتكرار حرف الفاء يعطي تنوعاً آخر غير ما ذكرناه من تنوع الحروف وطريقة نثرها، وهو أمر يتم في العقل الباطن ولا يُقصد مما يجعل لهذا النغم سحراً خاصاً لا يُقلّد.

تأمل قول عبد الله بن عنمة الضبي ودورانه مع حرف الهاء في بث شكوى الهجر وترديده لحرف اللام الذي احتواه اسم المحبوبة التي أضنى فؤاده هجرها (ليلى) وصار في نفسه كأنه علامة عليه ومختص به .

أَشَتَّ بِلَيْلَى هَجْرُها وبِعادُها ... بما قَدْ تُوَاتِينا ويَنْفَعُ زَادُهَا
سَتَلْهُو بِلَيْلَى والنَّوَى غَيْرُ غَرْبَةٍ ... تَضَمَّنَها مِنْ رَامَتَيْن جِمَادُهَا
لَيَالِيَ لَيْلَى إِذْ هِيَ الهَمُّ والهَوَى ... يُرِيدُ الفُؤَادُ هَجرَها فَيُصَادُهَا
فلمّا رأيتُ الدَّارَ قَفْراً سألْتُها ... فَعَيَّ علينا نُؤْيُها ورَمادُهَا
فلم يَبْقَ إلاَّ دِمْنَةٌ ومَنازِلٌ ... كما رُدَّ في خَطِّ الدَّوَاةِ مِدَادُهَا[1]

تأمل قوله : (هجرها، وبعادها) في البيت الأول، وكيف حكت الهاء بمخرجها البعيد شيئاً من معنى البعد الذي يعانيه الشاعر، وكيف حكى صوت الهاء تأوه الهجر، وألم الفراق ثم لفظتا

---

(١) المفضليات – جـ ١ / ص ٦٩ .

(سنلهو – تضمنها) في البيت الثاني، وقوله في البيت الثالث :(هِيَ – الهَمُّ – والهَوَى – هَجرَها) كيف جسَّدها في اللفظة الأولى بقوله :(هي) ثم جمع فيها النقيضين (الهم، والهوى) ليريك موطن العجب فيها، وكيف عمل حرف الهاء في هذه الكلمات الثلاثة خارجة من صدر المحب الذي يشكو لوعة الفراق، ومرارة البعد، والحنين إلى الماضي .

لذلك يجد من يتتبع هذا اللون من الجناس كثيراً من الأنغام العذبة التي تبعث في النفس طرباً وعجباً وميلاً لا تستطيع الصفة إدراكه، ولعل دراسة خاصة تنهض به لكي تجلي أبعاده وتوضح أثره وتبحث عن جذوره في عمق البيان العربي .

حديث الإمام عبد القاهر عن السجع .

تحدث الإمام عن السجع في أكثر من مواضع في كتابيه الأسرار والدلائل في الحديث عن قضايا معينة قصدها من هذا الحديث منها ما ذكره عند حديثه عن طريقة العارفين بجواهر الكلام في استخدام البديع وحرصهم على سلامة المعنى قبل الحرص على السجع وقد استشهد بصنيع الجاحظ في مقدمة كتبه.

قال :(فإن أردت أن تعرف مثالاً فيما ذكرتُ لك، من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرِّجون على هذا الفنّ (البديع)إلا بعد الثقة بسلامة المعنى، وصحَّته، وإلا حيثُ يأمَنون جنايةً منه عليه، وانتقاصاً له وتعويقاً دونه، فانظر إلى خُطَب الجاحظ في أوائل كتبه هذا – والخُطبُ من شأنها أن يُعْتَمَد فيها الأوزانُ والأسجاعُ، فإنها تُرْوَى وتُتناقل تَنَاقُلَ الأشعار، ومحلُّها محلُّ النسيب والتشبيب من الشعر الذي هو كأنه لا يُرَادُ منه إلاّ الاحتفالُ في الصنعة، والدَّلالةُ على مقدار شَوْطِ القَرِيحَة، والإخبارُ عن فَضْل القوة، والاقتدار على التفنُّن في الصنعة – قال في أول كتاب الحيوان: "جَنَّبك اللّه الشُّبْهة، وعَصَمَك من الحَيْرة، وجعل بينك وبين المعرفة سَبَباً، وبين الصدق نسبَاً، وحبَّب إليك التُّبت، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزَّ الحق، وأوْدِع صدرَك بَرْدَ اليقين وطَرَد عنك ذُلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القلّة". فقد ترك أوّلاً أن يوفّق بين الشبهة و الحيرة في الإعراب، ولم يَرَ أن يَقْرن الخلاف إلى الإنصاف، ويَشْفَعَ الحق بالصدق، ولم يُعْنَ بأن يَطْلُب لليأس قرينةً تصل جناحَه، وشيئاً يكون رَدِيفاً

له، لأنه رأى التوفيق بين المعاني أحقُّ، والموازنة فيها أحسنَ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ؛ ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ)(١)

وقد أشار ضمنا إلى بعض خصائص تراكيب مقدمات الكتب والخطب ومنها :

١- أنها يُعْتَمَد فيها الأوزانُ والأسجاعُ، فإنها تُرْوَى وتُتناقل تَنَاقُلَ الأشعار، وفي قوله (يعتمد فيها الأوزان)إشارة إلى تلك الألوان البديعية التي تتميز بجرسها القوي الناشيء من رعاية الفاصلة والوزن كالترصيع وهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز أو متقاربتها وكالتسميط - وهو أن يجعل المتكلم مقاطيع أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالف قافية البيت أو آخر القرينة وكالتشطير - وهو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يصرع كل شطر من الشطرين ولكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر، كقول مسلم ابن الوليد:

موف على مهج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل (٢)

وقد أشار إلى القيمة النفسية من استخدام الأوزان، والأسجاع في مقدمات الخطب ؛ لأنها تعلق بالقلب، فتساعد على الحفظ الذي هو وسيلة النقل، والانتشار من الرواة إلى الناس .

٢- أن مقدمات الخطب تقوم مقام التشبيب، والنسيب في بداية القصائد مما يعني اختيار معان للنفس فضل تعلق بها، وميل إليها، والتي يقصد منها جذب الانتباه، وملك حواس المخاطب وقد أشار إلى أنها مجال لاستعراض الصنعة، والإدل بقوة العقل في استقصاء المعاني، وجودة الألفاظ، والإخبار عن قدرة المبدع في استمالة المتلقي، وهو ما تنهض به مقدمات الخطب ومقدمات الكتب التي يحرص أصحابها أشد الحرص على جذب الانتباه، وصرف المخاطب، أو القارئ إلى العناية بما يسمع، أو يقرأ حتى يتم المتكلم ما بدأ.

وقد استعرض صنيع الجاحظ في مقدمة كتابه، وأنه راعى المعنى، وترك الطبع يعمل فيما بين اللفظ، والمعنى، ولم يسع إلى السجع على حساب المعنى رغم أنهم يحرصون على ذلك خاصة في مثل هذا الموطن، لكنَّ لزوم سجية الطبع أسلم في تعاطي هذه الفنون قال عن طريقة الجاحظ :(لأنه

---

(١) أسرار البلاغة / ١٠ .

(٢) ديوان مسلم بن الوليد / ٢١١ .

رأى التوفيق بين المعاني أحقُّ، والموازنة فيها أحسنَ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ؛ ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أَوْلى من أن يَدَعها، لنُصْرَة السجع وطلب الوزن، أولادَ عِلّة، عسى أن لا يوجد بينها وفاق إلا في الظواهر، فأما أنْ يَتَعَدَّى ذلك إلى الضمائر، ويُخلص إلى العقائد، والسَّرائر، ففي الأقلّ النادر. وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سَجَعاً حَسَنَاً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وسَاق نحوَه، وحتى تَجِده لا تبتغي به بدَلاً، ولا تجد عنه حِوَلاً ...) وقوله : (وحتى تَجده لا تبتغي به بدَلاً، ولا تجد عنه حِوَلاً) إشارة إلى شدة تمكنها واتصالها بمعناها وضرورة عدم تركها إذا وردت هذا المورد وفي هذا إشارة إلى أن لهذه الألوان اتصالا وثيقا بالمعنى، وليست علم تحسين في الظاهر.

وقد أشار إلى معاناة الصنعة عند غير ذوي الطبع عندما يرغب في تعاطي السجع فيحاول التوفيق بين الحروف في الفواصل من غير جور على المعنى ولا إخلال بالمقصود قال :(... فصعوبة ما صعب من السجع هي صعوبة عرضت في المعاني من أجل الألفاظ وذاك أنه صعب عليك أن توفق بين معاني تلك الألفاظ المسجعة وبين معاني الفصول التي جعلت أردافا لها فلم تستطع ذلك إلا بعد أن عدلت عن أسلوب إلى أسلوب...)([1])

وقد أشرنا عند الحديث عن الجناس إلى أن الإمام أكد ضرورة مراعاة الطبع وترك التكلف الذي يوقع في الذم، وضرورة إرسال المعاني على سجيتها لتختار من الألفاظ ما تشاء، وهو قوله (فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاصَ هذا النَّحو بالقَبُول: هو أنَّ المتكلم لم يَقُدِ المعنى نحوَ التجنيس والسَّجع، بل قادَه المعنى إليهما، وعَبر به الفرق عليهما، حتى إنه لو رَامَ تَركَهُما إلى خلافهما مما لا تجنيسَ فيه ولا سجعَ، لدخَل من عُقُوق المعنى وإدخال الوَحْشَة عليه، في شبيه بما يُنسَب إليه المتكلف للتَّجنيس المستكْرَه، والسجع النَّافر، ولن تجد أيمنَ طائراً، وأحسنَ أوّلاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلبَ للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيّتها، وتَدَعها تطلب لأنفسها الألفاظَ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها، ولم تَلْبَسْ من المعارض إلا ما

(١) دلائل الإعجاز / ٦٢ .

يَزِينها، فأمّا أن تَضَع في نفسك أنه لا بُدَّ من أن تجنس أو تَسْجَعْ بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنتَ منه بِعَرَض الاستكراه، وعلى خَطَرٍ من الخطأ والوقوع في الذَّمّ)([1].

وجملة الأمور التي أشار إليها النص، والتي يجب أن تراعى في السجع أن يكون المعنى هو الذي قاد نحو السجع، وليس العكس بحيث لا يستطيع أن يتخلى عنه إلا بتكلف، وألا ينوي السجع، ولا يعزم عليه ؛ لأن من شأن هذه النية أن تشوش على الطبع، وتؤثر على المعنى، وأن أفضل الطرق في تعاطي السجع هو لزوم سجية الطبعة كما أشار الإمام إلى ذلك في غير موضع بالإضافة إلى عدم الاستكثار منه بحيث يحرص على أن تكون كل عبارته مسجوعة، لأن هذا أمارة تكلف، ودليل استكراه فالطبع لا يصدر عنه ذلك، والمعاني لا تدين في كل وقت للسجع، وهو ما يفهم ضمناً من نص الإمام السابق .

حديث الإمام عن الحشو (الاعتراض)

تحدث الإمام عن الحشو، وقصد به الاعتراض وهو: – كما عرّفه أبو هلال العسكري – اعتراض كلام في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه، وقد تناوله حديث الإمام عبد القاهر بعد الحديث عن ألوان من البديع يُظن أن مرجع الحسن فيها إلى اللفظ فقط، فأزال ذلك اللبس وبيَّن أن مرجع الحسن أو القبح يرجع إليهما معا، وذلك في الرد على أنصار اللفظ . وأشار إلى الحشو، وأن تسميته بهذا الاسم توحي بقلة فائدته، ومع ذلك قد يتصادف وقوعه في موقع في غاية الحسن مع قوة التأثير في النفس .

وقد قسَّمه قسمين : قسم مقبول، وقسم مذموم، بناءً على تحقيقه للفائدة، أو عدم تحقيقه لها، ثم إنه أشار إلى لطيفة في القسم المقبول، وهي أنه يحقق فائدة بخلابة، وطرافة، بإضافة معنى غير متوقع، وبذلك يكون له فضل قبول في نفس السامع حيث جاءه المعنى من حيث لا ينتظره قال :

(وأما الحشو فإنما كُرِهَ وذُمَّ وأُنكر ورُدَّ، لأنه خلا من الفائدة، ولم يَحْلَ منه بعائدة، ولو أفاد لم يكن حشواً، ولم يُدْعَ لغواً، وقد تراه مع إطلاق هذا الاسم عليه واقعاً من القَبُول أحسنَ موقعَ، ومُدْرَكاً

(١) أسرار البلاغة / ١٤ .

من الرّضَى أجزلَ حظّ، وذاك لإفادته إيّاك، على مجيئه مجيءَ ما لا يعوّلَ في الإفادة عليه، ولا طائل للسامع لديه، فيكون مَثَلُه مَثَلَ الحَسَنة تأتيك من حيث لم ترقبها، والنافعة أتتك ولم تحتسبها، وربّمَا رُزِقَ الطُّفَيْليُّ ظَرْفاً يحظَى به حتى يحلّ محلّ الأضياف الذين وقعَ الاحتشاد لهم، والأحباب الذين وُثِقَ بالأُنس منهم وبهم) [1].

ولم يمثّل له الإمام بمثال كعادته في التوضيح، والبيان بمثال، أو أكثر بل مرَّ عليه سريعاً دون أن يتناول حدَّه، وتفريعاته ؛ لأنه رأى أنه حقق الغرض بما ذكر، وما تركه قد كفاه غيره البحث فيه، أو هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تقرير، وما أراد الإمام أن يقرره بهذه الإشارة العابرة للحشو هو أن مرجع الاعتبار فيه يرجع إلى المعنى، فإذا حقق الفائدة كان مقبولا، وإلا كان مكروها مذموماً، ولا يخفى أن ذلك يتضمن رداً على أنصار اللفظ .

حديث الإمام عن التطبيق أو الطباق

الطباق هو الجمع بين الشيء، وضده، والجمع بين الشيء، وضده لا يتم إلا من جهة المعنى ؛ لأن النظر في التقابل بين المعنيين، ولذلك كانت ميزة الطباق جلية الاتصال بالمعنى، ولم يعترضها شك كغيرها من ألوان البديع التي يشتبه فيها مصدر المزية، وموطن الفضل ؛ وهذا ما أكده الإمام عبد القاهر بقوله :(وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أنّ الحُسْن والقُبْح لا يعترض الكلامَ بهما إلاّ من جهة المعاني خاصّةً، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيبٌ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيدٌ وتصويب، أما الاستعارة، فهي ضربٌ من التشبيه، ونَمَطٌ من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتُدركه العقول، وتُستَفتَى فيه الأفهامُ والأذهان، لا الأسماع والآذان، وأما التطبيق، فأمره أبينُ، وكونه معنوياً أجْلَى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده، والتضادّ بين الألفاظ المركّبة مُحال، وليس لأحكام المقابلة ثَمَّ مَجَال)[2].

وقد أشار الإمام في النص السابق إلى أن السر في ظهور المزية، والفضل للمعاني في الاستعارة يرجع إلى كونها تبنى على التشبيه، وهو إلحاق أمر بأمر في معنى مشترك بينهما، وهذا الإلحاق طريق

---

(١) أسرار البلاغة / ١٩ .

(٢) أسرار البلاغة / ٢٠ .

إدراكه هو العقل الذي يدرك الصلة بين المعنيين، والجهة الجامعة التي أوجدت وجه الشبه ؛ لأن في التشبيه قياس لأمر جلي على أمر خفي، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، والعقول، وليس للسمع والأذن التي هي آلته أي دور في ذلك إلا كونها ممر وصول للمعنى إلى العقل، والقلب .

والأمر في رجوع المزية، والفضل في الطباق للمعاني أوضح ؛ لأنه مقابلة بين معنيين، ولا دور للفظ فيه كما أشار الإمام، وحديثه في الطباق يندرج في الإطار العام عن الحديث عن قضية اللفظ، والمعنى التي هي جزء من شرحه لوسيلة فهم وجه إعجاز القرآن التي ملكت أقطار نفسه، فأفاض في بيان كل ما يتعلق بها ويقربها من الأذهان ..

حديث الإمام عن حسن التعليل

يشعر المتأمل لتراث الإمام عبد القاهر بأنه شغوف بالبحث عن الخفيات، وتجلية المبهمات، وكشف الأسرار الدقيقة وراء التراكيب العقلية، وحديثه فيها يطول حتى يطمئن إلى إضاءة كل جوانبها، وتوضيح غوامضها ؛ لأنها أكثر المعاني التباسا في عقول الناس ؛ لذلك نجد كلامه قد طال في الحديث عن التخييل في أثناء الحديث عن السرقات الشعرية حيث قسَّم المعاني قسمين : قسم عقلي، وقسم تخييلي، وذكر أنواع كل منهما .

وقرر أن أشكال التخييل لا تكاد تحصى كثرة، ولا يحاط بها تبويبا، وتقسيما، وهو مع ذلك يأتي على طبقات من ناحية المستخدمين، فمنهم من يجيد الصنعة فيه، حتى يلبسه ثوب الحقيقة، ويتفنن في طرق الإقناع به، ومنهم غير ذلك بحسب رجحان العقل، وسعة المعرفة، والقدرة على التصرف في فنون القول.

قال الإمام : (وأما القسم التخييلي، فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدقٌ، وإنَّ ما أثبتَه ثابت وما نفاه منفيّ، وهو مفتنُّ المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يُحصَر إلاّ تقريباً، ولا يُحاط به تقسيماً وتبويباً، ثم إنه يجيء طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلُطِّف فيه، واستعين عليه بالرِفق، والحِذق، حتى أُعطِي شَبَهاً من الحقّ، وغُشِّي رَوْنَقاً من الصّدق، باحتجاج تُمُحِّل،

وقياسٍ تُصنَّع فيه وتُعمَّلَ) (١).كما أن في كلامه تأكيدا على أن التخييل يبنى على إحكام الصنعة ودقة المأخذ، وحسن الاستدلال، والقياس، وحسن التعليل .

فالتخييل عنده أعم من حسن التعليل، لأنه نوع من أنواع كثيرة من التخييل، كما شمل الحديث عن المبالغة، والترشيح، وقد حدد الإمام أنواع حسن التعليل، وحدوده، والفرق بينه، وبين الكذب، وأن هناك شعرة دقيقة بين التخييل المقبول لدى العقل،وبين المبالغة في الادعاء التي يرفضها العقل ؛ لأنه لا يجد طريقا لقبولها، ولا منصرفا عن تكذيبها وقد عرَّف الخطيب حسن التعليل بأن يدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي وهو أربعة أقسام لأن الوصف إما ثابت قصد بيان علته أو غير ثابت أريد إثباته والأول إما أن لا يظهر له في العادة علة أو يظهر له علة غير المذكورة والثاني إما ممكن أو غير ممكن)(٢) ولا شك أنه استقى تعريفه، وأقسامه من الإمام عبد القاهر، وسنرى كيف جمع الإمام أطرافه تحت التخييل مع بعض ألوان المبالغة، والترشيح .

قال الإمام عبد القاهر :(وأنْ ليس الأمر على ما ظنّه ناصر الإغراق والتخييل الخارج إلى أن يكون الخَبَر على خلاف المَخْبَر، من أنه إنما يتّسع المقال ويَفْتَنّ، وتكثر موارد الصنعة، ويغزُر يُنْبُوعها، وتكثر أغصانها، وتتشعّب فروعها، إذا بُسِط من عنان الدعوى، فادُّعي ما لا يَصحّ دعواه، وأثبت ما ينفيه العقل، ويَأباه. وجملة الحديث أن الذي أريده بالتخييل ها هنا، ما يُثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابتٍ أصلاً، ويدَّعي دعوَى لا طريقَ إلى تحصيلها، ويقولُ قولاً يخدع فيه نفسه ويُريها ما لا ترى)(٣) فالتخييل عند الإمام أن يثبت الشاعر أمراً غير ثابت أصلاً، وقوله (ويدعي دعوة لا طريق إلى تحصيلها) بأن يدعي علة ممتنعة، ومعنى قوله :(ويقولُ قولاً يخدع فيه نفسه) بأن يكون عالما بالعلة الحقيقية للمعنى الذي أثبته ثم يتركها إلى علة غير حقيقية، وهذا كخداع النفس ؛ لأنه كمن عرف الحق، وأعرض عنه، وقوله :(ويريها ما ترى) بأن يبتدع، ويبتكر علة للمعنى من خياله بعد أن أعرض عن العلة الحقيقية .

---

(١) أسرار البلاغة /٢٦٧ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة / ٦/ ٦٧ .

(٣) أسرار البلاغة / ٢٧٤ .

وقول الإمام (وأنْ ليس الأمر على ما ظنَّه ناصر الإغراق والتخييل) يشير إلى حيوية الحركة الأدبية، والنقدية التي تقدح الرأي بالرأي الآخر بما يشتملا عليه من إثبات ونفي وجذب وردٍ يثري الحركة الأدبية والنقدية .

كما أشار بقوله : (الخارج إلى أن يكون الخَبَر على خلاف المَخْبَر) إلى مجاوزة الحد في التخييل إلى الكذب الذي بسط فيه عنان الدعوى، وأثبت فيه ما لا يقبله العقل، وما كان بعيدا عن العقل، فهو عن القلب أبعد، وأبعد منهما أن يكون له مصدر من الطبع ؛ لأن الطبع لا ينافي العقل، وكل ما خرج من الطبع تقبَّله العقل أما ما كان بتكلف، وصنعة فإن العقل لا يقبل منه إلا ما أتقنت صنعته، وتجلت موهبته .

وقد أشار إلى أن العمل في الاستعارة – وهي عنده من ألوان البديع – على غير ذلك، وأنها لا تدخل تحت هذا اللون من الخيال الصرف الذي ليس له اتصال بالواقع لأن لها أصلا بنى عليه المتكلم هذه الاستعارة وهو التشبيه، وبناء الاستعارة على التشبيه يعني أن المستعير لا يقصد إثبات المعنى المستعار وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره بحيث إذا رجع العقل إلي هذا التشبيه أدرك معناه، وتبين منه مغزاه، ومرماه .قال :(فأمَّا الاستعارة فإن سبيلَها سبيلُ الكلام المحذوف، في أنك إذا رجعت إلى أصله،وجدتَ قائله وهو يُبت أمراً عقليّاً صحيحاً، ويدّعي دعوَى لها سِنْخٌ في العقل) [1].

وقد فرَّق بين الكذب الصرف الساذج، وبين الخيال المبني على المخاتلة، والخداع والغرض منه تزويق الكلام، ومداعبة الوجدان عن طريق اختراع العلل، وتلفيق الأسباب التي قد تصادف استحسانا من العقل، فهذه ليست كالكذب الصرف الغفل الساذج الذي يلقيه متكلم لا يبغي من ورائه إلا مخالفة الواقع، وليس فيه صنعة ولا قصد به إبداع علة، أو إثبات معنى بضرب من الطرافة، وحسن التصرف الذي يقال عنه خير الشعر أكذبه قال : (وستمرُّ بك ضروبٌ من التخييل هي أظهرُ أمراً في البُعد عن الحقيقة، وأكشفُ وجهاً في أنه خداعٌ للعقل، وضربٌ من التزويق، فتزداد استبانة للغَرَض بهذا الفصل، وأزيدُك حينئذ إن شاء اللّه، كلاماً في الفرق بين ما يدخل في

(١) أسرار البلاغة / ٢٧٣ .

حيّز قولهم خير الشعر أكذبه، وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه في أنه اتّساع وتجوّزٌ فاعرفه. وكيف دار الأمرُ فإنهم لم يقولوا خير الشعر أكذبه، وهم يريدون كلاماً غُفْلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبُه ويُفْرِط، نحو أن يصف الحارسَ بأوصاف الخليفة،ويقول للبائس المسكين إنّك أمير العِرَاقَيْن، ولكن ما فيه صنعةٌ يتعمّل لها، وتدقيقٌ في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفةٍ وفهمٍ ثاقبٍ وغوصٍ شديد، والله الموافق للصواب،) ([1])

وقد قرر أن من يتتبع أصول التخييل، ومرجع المعنى فيه لا يستطيع أن يصل فيه إلى غاية ؛ لأنه لا يعتمد على قاعدة محددة ينطلق منها، وإنما هو تصرف العقل بقدر معرفته، وملكته، وخبرته، والعقول في ذلك تتفاوت تفاوتاً لا يقع تحت الحصر، ومن ثَم فإن الطريقة المثلى في تتبعه، وبحثه أن يجمع منه ما وقع تحت يده من أقسامه، وأن يتتبع منه ما يستطيع قال :(وأعود إلى ما كنت فيه من الفصل بين المعنى الحقيقي وغير الحقيقي. واعلم أن ما شأنه التخييل، أمْرُه في عِظَم شجرته إذا تُؤُمِّلَ نَسَبُه، وعُرفت شُعُوبه وشُعَبُه، على ما أشرت إليه قُبَيلُ، لا يكاد تجيء فيه قِسْمَةٌ تستوعبه، وتفصيل يَستغرقه، وإنما الطريق فيه أن يُتَّبَعَ الشيء بعد الشيءِ ويُجمع ما يحصُره الاستقراء ...) ([2])

وهناك نوع من المبالغة أدخله في الحديث عن التخييل، وهو الادعاء بأن الصفة المثبتة للموصوف هي أصل فيه، وغيره مشبَّه به . وذلك بأن يدعي للممدوح أنه الأصل في هذه الصفة، وأن من كانت له هذه الصفة في الواقع ما هو إلا منتحل لها مشبه فيها بالممدوح، وذلك على سبيل التخييل بأن يجعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً .

قال : (وهذا نوعٌ آخرُ، وهو دعواهم في الوصف هو خِلقةٌ في الشيء وطبيعةٌ، أو واجبٌ على الجملة، من حيث هو أنّ ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفادَهُ،، وأصل هذا التشبيهُ، ثم يتزايد فيبلُغ هذا الحدَّ، ولهم فيه عباراتٌ منها قولهم إن الشمس تستعير منه النور وتستفيد، أو

(١) أسرار البلاغة / ٢٧٥ .

(٢) أسرار البلاغة / ٢٧٥ .

تتعلّم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة ...) [1] وفيه من الطرافة ما فيه مع إثبات الصفة، وتأكيدها .

أن تكون الصفة ثابتة، ولكن لا يظهر لها علة في العادة .

تحدث الإمام عن نوع من حسن التعليل يكون بإثبات علة لا تظهر في العادة لصفة ثابتة، وهذه العلة يدعيها الشاعر، ويبتكرها تعظيما للممدوح، أو تعظيما لأمر يراه حقيقا بالتعظيم قال الإمام : (ونوع آخر، وهو أن يدّعيَ في الصفة الثانية للشيء أنه إنما كان لِعلّةٍ يضعها الشاعر ويختلقُها، إمّا لأمرٍ يرجع إلى تعظيم الممدوح، أو تعظيم أمرٍ من الأمور)

وقد مثّل له الإمام ببيت فارسي ترجمته بقوله :

لَوْ لَم تكن نِيَّةُ الجوْزاءِ خِدْمَتَهُ ... لَمَا رأيتَ عليها عِقْدَ مُنْتطقِ

وقول المتنبي:

لم يَحْكِ نائلَكَ السَّحابُ وإنّما ... حُمَّتْ به فصيبُها الرُّحَضاءُ [2]

ففي البيت الأول جعل هيئة الجوزاء وما تبدو عليه من إحاطة الكواكب بها كأنها تتهيأ لخدمة الممدوح كما هي عادة الخادم الذي يضع عقد المنتطق في حين أن هذه العلة التي ادعاها ممتنعة، وفيه نوع من الطرافة، والظرف مع تعظيم شأن الممدوح وأنه جدير بأن يكون مخدوما من الجميع.

أما البيت الثاني فقد ادعى أن ما يزل السحاب من المطر لا يقصد به حكاية جود الممدوح، وكأنه بذلك يدعي أن السحاب يحاول أن يحاكي كرمه بعطره، وأن هذا أمر معروف، ولكنه هذه المرة بلغ به العجز مبلغه في محاولة اللحاق بجود الممدوح، فلم يستطع فَحُمَّ من شدة حسده، وهذا المطر هو عرق المحموم فهو يثبت بهذه العلة المبتكرة كرم الممدوح، ويبين مدى جوده بمعنى طريف، ومدخل حسن إلى عقل المخاطب، وسمعه، لأنه وإن كان يتضمن تشبيه الجواد بالغيث

(١) أسرار البلاغة / ٢٧٧ .

(٢) ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / ١ / ٣٠ .

بل ويفضله عليه إلا أن طريقة إثبات المعنى عن طريق هذه العلة المدعاة قد خرجت به عن المفهوم الاصطلاحي للتشبيه إلى إثباته بهذا الأسلوب الخلاب .

قال الإمام : (لأنه وإن كان أصله التشبيه، من حيث يشبّه الجَوَاد بالغَيْث، فإنه وَضَعَ المعنى وضعاً وصوَّره في صورةٍ خرج معها إلى ما لا أصل له في التشبيه، فهو كالواقع بين الضَرَّبَين ..) (١)

حديث الإمام عن التجريد

والتجريد هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه (٢).ومن المعلوم أن هناك فرقاً بين التشبيه، والاستعارة، والتجريد يرجع إلى طبيعة إحساس البليغ بالمعنى فيصوغ الأسلوب فيما يعبر عنه ؛ فإنه حين يأخذه الإعجاب بكرم الكريم فيستشعر تلك الصفة فيه فيقول : (محمد كالبحر في العطاء)، فإذا زاد هذا الإعجاب قال: (محمد بحر) على التشبيه البليغ، فإذا تغلغل هذا المعنى في نفسه قال : (عطاؤه يموج موجاً) على حد الاستعارة، فإذا أراد أن يصعِّد هذا الشعور، ويبالغ في الصفة قال: (لقيت منه بحراً) على التجريد، وكأنه جرَّد منه بحراً في الكرم، وكأنه جزء من ذاته، ولا يخفى ما فيه من الحسن، والمبالغة في إثبات الصفة .

فالفرق بين طرق إثبات المعنى بهذه الوسائل هو فرق في الإحساس بدرجة المعنى، والرغبة في إثباته بالدرجة نفسها عن المخاطب .

وقد تحدث الإمام عبد القاهر عن التجريد عند حديثه عن الفرق بين التشبيه البليغ، والاستعارة حيث لحظ فيه أنه يفارق الاستعارة من وجه، ويفارق التشبيه من وجه ؛ لأن التشبيه يبنى على ملاحظة تشابه بين المشبه، والمشبه به في جهة، أو جهات محددة، وفي الاستعارة يتصور الحكم على الاسم بالاستعارة إذا جرى بوجه على ما يدعي أنه مستعار له، والاسم في التجريد لا يتصور جريه على المذكور بوجه، لأنه ليس بخبر عنه، ولا صفة له، ولا حال وإنما يكون هو الاسم بعينه في لقيت به أسداً، ولقيني منه أسد، فهو مفعول (لقيت)، وفاعل (لقيني) ولفظ الأسد واقع على الحقيقة . قال الإمام : (فإن قلت فما تقول في نحو قولهم لقيتُ به أسداً ورأيت منه ليثاً. فإنه

---

(١) أسرار البلاغة / ٢٧٨ .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني / ٥٤ .

مما لا وجه لتسميته استعارة، ألا تراهم قالوا: لئن لقيتُ فلاناً لَيلْقَيَنَّك منه الأسَدُ، فأتوا به معرفةً على حدِّه إذا قالوا: احذرِ الأسد، وقد جاء على هذه الطريقة ما لا يُتَصوَّر فيه التشبيه، فُظَنَّ أنّه استعارة، وهو قوله عز وجل: " لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ "(١) والمعنى – واللّه أعلم – أنّ النّار هي دار الخلد، وأنت تعلم أن لا معنى هاهنا لأن يقال إن النار شُبّهت بدارِ الخلد، إذ ليس المعنى على تشبيه النّار بشيء يسمّى دار الخلد، كما تقول في زيد إنه مثل الأسد، ثم تقول: هو الأسد، وإنما هو كقولك: النار مزلهم ومسكنهم، نعوذ باللّه منها ...) (٢)

(١) سورة فصلت / ٢٨ .
(٢) أسرار البلاغة / ٣٣٦ .

(وكلام عبد القاهر يفيد أن التجريد على ضربين ؛ فيه معنى التشبيه، وهو ما كان القصد منه تشبيه شيء بشيء.مثل (لقيت بفلان أسداً، وهو تشبيه لا استعارة .

وضرب آخر : وهو ما كان من قبيل تجريد الشيء من نفسه، وذلك كما في الآية الكريمة " لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ "(١)فإنها لتجريد دار الخلد من جهنم ولا يشبه الشيء بنفسه فهذا النوع لا يكون تشبيها، ولا استعارة أيضاً ؛ لأن الاستعارة مبنية على التشبيه، وهو غير موجود)(٢) .

(وأيُّ وجْهٍ للشكِّ في ذلك، وهو يؤدّي إلى أن يكون الكلام على حدّ قولك: ولا قَرار على زَأْرِ مَن هُو كالأسد؟ وفيه من العِيِّ والفَجَاجة شيءٌ غير قليل. هذا ومن حقّ غالطٍ غَلِطَ في نحو ما ذكرتُ – على قلّة عُذْرِه – أن لا يغلط في قول الفرزدق:

قِياماً يَنْظُرون إلى سَعيدٍ ... كأنَّهُمُ يَرَون به هلالاَ

ولا يُتَوَهَّم أن هلالاً استعارة لسعيد، لأن الحكم على الاسم بالاستعارة مع وجود التشبيه الصريح، محالٌ جارٍ مجرى أن يكون كُلّ اسم دخل عليه كافُ التشبيه مستعاراً، وإذا لم يغلط في هذا فالباقي بمنزلته فاعرفه. (٣)

حديث الإمام عن المزاوجة

تحدث الإمام عبد القاهر عن المزاوجة، والتقسيم، والجمع، والمقابلة في المزاوجة تحت فصل في شواهد على النظم يتحد في الوضع، ويدق فيه الصنع وهذا الصنيع من الإمام يشير إلى عدة أمور من أهمها أنه لم يفرق بين ألوان البلاغة من حيث مسماها بين المعاني، أو البديع، أو البيان إذا حسن موقعها وحققت غرضها حيث ذكر هذه الألوان من البديع تحت ألوان من النظم يتحد في الوضع، ويدق في الصنع .

---

(١) سورة فصلت / ٢٨ .

(٢) ينظر البديع بين المتقدمين والمتأخرين / د : إبراهيم عبد الحميد السيد التلب / ١٧٨ / الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م / دار الطباعة المحمدية / القاهرة .

(٣) أسرار البلاغة / ٣٣٦ .

ومنها أنها وثيقة الاتصال بالمعنى ؛ لأن معرفة هذه الألوان تعتمد على ملاحظة العلاقة بين المعاني فهي ترتكز على شدة الاتصال بين معانيها مما يؤكد القيمة المعنوية لألوان البديع، وأنها ليست تزييناً مجرداً لظاهر اللفظ، كما أن هذا الاتصال الوثيق بالمعاني يرد على من اشترط ورودها بعد وضوح الدلالة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .

(وإذا ما تأملت ما عدّه الإمام عبد القاهر من هذا النمط العالي، رأيت العلائق بين جمل لا مفردات، ورأيت العلائق أساسها التناسل، وليس أساسها التقارن والتجاور. وهو في هذا لا يفرق بين ما يعرف بأساليب البديع وغيرها، فمن النظم العالي ما هو حسن تقسيم وحسن مقابلة ومزاوجة ... وكل هذا عند المتأخرين من المحسّنات، ولكن الاعتداد عند الإمام بشدة ترابط أجزاء الكلام..) [1]

وهذا ما يؤكده صنيع الإمام في هذه الألوان، وبيانه لطبيعة اتصال المعاني فيها قال : (فصل في شواهد على النظم يتحد في الوضع، ويدق فيه الصنع، واعلمْ أنَّ مما هو أصلٌ في أن يَدقَّ النظرُ، ويغمُضَ المسلكُ في توخّي المعاني التي عرفتَ أنْ تتحدَ أجزاءُ الكلامِ، ويَدْخُلَ بعضُها في بعضٍ، ويَشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأولَ، وأن يحتاجَ في الجملةِ إلى أن تضَعَها في النفس، وَضْعاً واحداً، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يضعُ بيمينه هاهُنا في حالِ ما يضعُ بيساره هناك . نَعم، وفي حالِ ما يُبْصرُ مكانَ ثالثٍ، ورابعٍ يضعُها بعدَ الأولينِ . وليس لِما شأنُه أن يجيءَ على هذا الوصفِ حدٌّ يحصرهُ، وقانونٌ يحيطُ به، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتّى، وأنحاءَ مختلفةٍ) [2]

---

(١) نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني / د: محمود توفيق محمد سعد / ٥٦ بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفيه / العدد العشرون / ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .

(٢) دلائل الإعجاز ٩٣ .

تشبيه الإمام لطبيعة ترابط المعاني في بناء العبارة بلبنات البناء وتشبيه المبدع للقول البليغ بالباني في ملاحظة موضع اللبنة من أخواتها يشير إلى شدة التلاحم وقوة التماسك وملاحظة العلاقة بين كل أجزاء العبارة التي تؤدي المعنى الكلي، وأنه يضع الجزء، وهو يلاحظ مكانه في الكل، وصلته بغيره، وأنه لا ينظر إلى الكلمة مفردة عن أخواتها .

وبناء العبارة على هذه الشاكلة يتنوع تنوعاً واسعاً تبعاً لمهارة المبدع الذي يشكل مفرداته بما يؤدي الغرض، ويحقق الغاية كما يختلف باختلاف المبدعين، واختلاف مقامات الكلام، وقد بدأ الإمام حديثه في هذه النوعية من البناء التعبيري بالحديث عن التزاوج ؛ لأن العبارة فيه شديدة الاتصال ببعضها فلا يتم أولها إلا بتمام آخرها ؛ لأن فيه مقابلة في المزاوجة بين معنيين في الشرط، والجزاء معاً، وطبيعة الشرط، والجزاء كالجملة الواحدة في قوة الاتصال .وبناء العبارة على هذه الشاكلة يتنوع تنوعاً واسعاً تبعاً لمهارة المبدع الذي يشكل مفرداته بما يؤدي الغرض، ويحقق الغاية كما يختلف باختلاف المبدعين، واختلاف مقامات الكلام، وقد بدأ الإمام حديثه في هذه النوعية من البناء التعبيري بالحديث عن التزاوج ؛ لأنه العبارة فيه شديدة الاتصال ببعضها فلا يتم أولها إلا بتمام آخرها ؛ لأن فيه مقابلة في المزاوجة بين معنيين في الشرط، والجزاء معاً، وطبيعة الشرط، والجزاء كالجملة الواحدة في قوة الاتصال .

وقد أشار الإمام إلى هذا المعنى في موضع آخر قال: (ووزانُ هذا أن الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إنّ حكمَهما حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنًى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفردِ في امتناع أن تحصل به الفائدة) (١)

وقد مثّل له الإمام بقول البحتري:

إذا ما نَهى النّاهي فَلجَّ بيَ الهوى ... اصاخَتْ إلى الوَاشي فلجَّ بها الهَجْرُ

(فقد زاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، أي جعل معنيين وقعا في الشرط، وهما "نهي الناهي"، و"إصاختها إلى الواشي"، ورتّب على كل معنى: اللجاج؛ لجاج الهوى به عند نهي الناهي، ولجاج الهجر بها عند إصاختها إلى الواشي. ترتّب اللجاج بالفاء في كلٍ على شرطين متقابلين، ومن

---

(١) أسرار البلاغة / ١١١ .

العادة كما يقول أهل العلم أن يختلف ما يترتب على كل لأنهما يختلفان، ولكن الشاعر راعى في الشرط ما راعاه في الجواب، وعطف على الشرط ما عطفه على الجواب، مما يحقق اتحاد أجزاء الكلام، وتداخل معانيه، وتناسلها، وشدة ارتباط بعضها ببعض، فإذا رتبت على أحدهما غير ما رتبت على الآخر لم يتحقق ذلك التزاوج، ومن هذه المزاوجة قول البحتري أيضاً:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها

رتّب فيضاناً على أمرين مختلفين: الاحتراب والتذكر، فزاوج بين شرط وما كان جواباً له، وجعلهما معدناً لشيء واحد على اختلافهما: اختلاف الجواب عن الشرط. ولو أنه قال: "إذا احتربت يوماً فتقطعت أرحامها، تذكرت القربى ففاضت دموعها" لم يكن من المزاوجة؛ لأنها لم ترتب فيضاناً على شرط وجزائه (١)

نوع ثان من المزاوجة أشار إليه الإمام : وهو ما كان الاتصال بين المعاني فيه قائماً على المفاجأة بمعانٍ تعكس الأوضاع وتبدل الحال، ولا تعتمد في تشابكها على قاعدة معينة، وقد مثّل له بقول : سُليمانَ بنِ داود القُضاعيِّ – الوافر – :

فبينا المرءُ في علياءَ أهوَى ... ومنحَطّ أُتيحَ لهُ اعتلاءُ

وبينا نعمةٌ إذْ حالُ بؤسٍ ... وبؤسٌ إذْ تعقّبَه ثَراءُ

والفرق بين هذا النوع، وسابقه أن تشابك المعاني في البيتين الأخيرين بُني على مفاجأة من تدبير فوق طاقة البشر في تصريف أحوال الناس فبينا الإنسان يرتقي درج المجد أو ارتقى إذا به يهوى، وعلى أنقاضه يرتقي منحط كأنهما على كفتي ميزان، صعود أحدهما هبوط الآخر، وكذا الحال بين الثراء، والسعادة، والفقر، والضنك، وهذه أمور يصرفها الله، وليس للإنسان قدرة يتحكم بها في هذه المقادير، ولذلك لم يبنها الشاعر على ذكر العلل .

أما النوع الأول فإن اتصال المعاني مرتبط بأسباب يملك الإنسان فيها الاختيار بين بين اللجاجة في الهوى، أو اللجاجة في الهجر مع نهي الناهي، أو الإصاخة للواشي ؛ ولذلك عدّه الإمام نوعاً آخر غيره .

---

(١) نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني / د: محمود توفيق محمد سعد /٥٦.

نوع ثالث من المزاوجة عند الإمام .

نوع ثالث أشار إليه الإمام، وهو ما كان تشابك المعنى فيه، واتصاله مبنياً على اتصال المشبه بالمشبه به في الصورة التشبيهية، وخاصة التشبيه التمثيلي ؛ لأنه ينبيء عن صورة كلية تتكون من عدة صور جزئية تتشابك فيما بينها، وتتمازج بحيث لا يمكن فصل بعضها عن بعض ؛ لأنها في النهاية تكون صورة واحدة في الوجدان، ومفهوم الصورة العام هو: (ذلك التعبير اللغوي الذي يتخذ نسقاً معيناً يثير في النفس مدركات حسية مستخدماً في ذلك كل وسائل التأثير الكائنة في اللغة من عبارات حقيقية وتشبيهات، ومجازات وكلمات ذات جرس خاص ....، وربط بين الجمل، وفصل بينها، وتضاد، وتجانس، وما إلى غير ذلك)[1] وهذا التمازج والتماسك مع الدقة في الوضع، هو ما أشار إليه الإمام في هذا النوع من المزاوجة، ومثّل له بقول كثير :

وإنّي وتَهيامي بعَزّة بعدما ... تخلّيتُ مما بَيْنَنا وتخلّتِ

لكالمُرتَجي ظِلَّ الغَمامَةِ كُلّما ... تَبوّأ منها للمَقِيلِ اضْمَحلّتِ

فهو تشبيه تمثيلي شبّه فيه حال هيامه بها بعد أن بدأ بهجرها، فهجرته، وتخلى عنها، وتخلت عنه، وكان من المنتظر أن يسلو عنها – خاصة أنه الذي بدأ بالتخلي – فإذا به يقع في أسر الهيام، والمشبه به حال من يسير في صحراء في شدة القيظ يبدو له أمل براق في النجاة من الهول بظل الغمامة، فإذا اقترب منها تبددت، وتبدد معها أمله، وعاد إلى ما فيه من لهيب القيظ يحدوه لهيب اليأس، فهو لا يريد أن يشبه نفسه بالمرتجي، ولا عزة بالغمامة على الانفراد، وإنما أراد أن يصل ابتداءً مطمعاً بانتهاءٍ مؤيسٍ مما يعني أن المعنى يؤخذ ككل متصل كما أشار الإمام في موضع آخر، –وهو مشابه لما نحن فيه – إلى شدة ترابط المعاني في الصورة التمثيلي، وأنه لا يصلح أن تفرد جمله بعضها عن بعض كما يقع ذلك في التشبيه المتعدد أو التشبيهات المفردة المنفصلة قال :

(١) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية د/ شفيع السيد ص٣٠ ط دار الفكر العربي الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

(وقد يجيءُ الشيء من هذا القَبيل يُتوهَّم فيه أن إحدى الجملتين، أو الجمل تنفرد وتُستعمَل بنفسها تشبيهاً، وتمثيلاً، ثم لا يكون كذلك عند حُسن التأمل، مثال ذلك قوله:

كما أَبْرقَتْ قوماً عِطَاشاً غمامةٌ ... فلما رَجَوها أقْشَعَتْ وتَجَلَّتِ

هذا مَثَلٌ في أن يظهر للمضطرِّ إلى الشيء، الشديدِ الحاجةِ إليه، أمارةُ وجوده، ثم يفوتـــه، ويبقى لذلك بحسرة، وزيادة تَرَح، وقد يمكن أن يقال: إن قولك: أبرقت قوماً عطاشاً غمامة، تشبيهٌ مستقلٌ بنفسه، لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت في إفادة المقصود الذي هو ظهور أمرٍ مُطمع لمن هو شديد الحاجة، إلاّ أنه وإن كان كذلك، فإن حقّنا أن ننظر في مغزى المتكلم في تشبيهه، ونحن نعلم أن المغزى أن يصلَ ابتداءً مُطمعاً بانتهاءٍ مُؤْيس، وذلك يقتضي وُقوفَ الجملة الأوّلة على مـــا بعدها من تمام البيت) (١) فنظر الإمام إلى حال المتكلم الذي صاغ معناه في قالب واحد من بدايته إلى نهايته، وقد جاء صدى للصورة الكلية المتصلة المترابطة في نفسه، وهذا التشابك في النفس أدى إلى تشابك المعاني في صياغة العبارة بحيث لا يصلح تفكيكها نظراً لغرض المتكلم .

حديث الإمام عن التقسيم

تحدث الإمام عن التقسيم ضمن حديثه عن النمط العالي من الكلام الذي يتحد في الوضع، ويدق في الصنع مما يؤكد مكانة هذا اللون البديعي ويؤكد أثره على المعنى وخاصة إذا قـــسمت ثم جمعت كما أشار الإمام ولعل سر إعجاب الإمام بهذا اللون يرجع إلى أن عمل البليغ فيه يـــصدر في عدة جهات في وقت واحد مع قوة الاتصال فيما بين الجمل المقسمة من ناحية، واتصال أطرافها مع استقصاء المعنى، واستيعاب أقسامه من ناحية أخرى، وقد استشهد له بقول حسّان :

قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عَدوَّهُمُ ... أو حاولوا النّفعَ في أشياعِهم نَفَعُوا

سَجيّةٌ تلك منهُمْ غيرُ مُحدثَة ... إنّ الخلائقَ فاعلَمْ شَرُّها البِدَعُ (٢)

فقد قسم أولاً فجعل الضر للأعداء، والنفع للأشياع ثم عاد وجمع في جعل هذا الـــصنيع عادة وطبعاً جبلوا عليه تأكيدا على أصالة هذه الصفة فيهم، وجمال التعبير جاء من تباعـــد المعـــنى

(١) أسرار البلاغة / ١١١ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت / ٥٨ .

بداية في التفريق بين النفع والضر لأنهما ضدان متباعدان تباعد الأعداء عن الأشياع، ومع هذا التباعد عاد فجمعهما في مناسبة في تمام الوفاء بالمعنى ففيه التأكيد والتقرير للمعنى بذكره مجملاً ثم ذكره مقسَّماً ثم ذكره مجموعاً من دون الشعور بملل التكرار مع أريحية يبعثها حسن المأخذ، وعبقرية التصرف في المعنى .

قال الشيخ أبو موسى : (وهذا مما عدَّه المتأخرون في محسنات البديع، والأمر فيه ظاهر، وقوله : (وخصوصاً إذا قسمت ثم جمعت) فيه زيادة تركيب، وتشابك، وتماسك، لأن الجمع بعد التقسيم عود إلى الأقسام، وضبط لها، وربط جديد، يضاف، وكأننا نتناول الشيء ثلاث مرات، مرة نذكره، ومرة نقسمه، ومرة نجمع أقسامه كما قال حسان ﷺ فقد قال : (قوم) فذكر القوم ثم قسَّم أحوالهم بين ضر عدوهم، ونفع أشياعهم، وهذا شائع جداً في الكلام ثم جمع ذلك، وقال (سجية تلك فيهم) وهكذا تجد كلاماً واحداً بإضافات جديدة، وتحليل حسان ﷺ من كلامه حكمة، لأنه لما جمع بعد ما قسَّم وقال (سجية تلك فيهم) وصفها بأنها قديمة، وهذا مدح وثناء ثم أردف ذلك بضده، وهو أن شر الخلائق ما كان مستحدثا بدعاً)[1].

وقد ذكر الإمام عبد القاهر لونا آخر من التقسيم وصفه بغاية الحسن في قول الشاعر :

لو أنَّ ما أنتمُ فيه يَدُوم لكُمْ ... ظَنَنْتُ ما أنا فيه دائماً أبدا

لكنْ رأيتُ اللّيالي غَيْرَ تارِكَة ... ما سَرَّ من حادِثٍ أو ساءَ مُطَّرِدا

فقد سَكَنْتُ إلى أنّي وأنّكُمُ ... سَنَسْتَجِدُّ خِلافَ الحالَتَيْنِ غَدا

لأن فيه تقسيماً، وجمعاً من وجه أكثر تشابكاً فيما بين المعاني حيث قسَّم الشاعر بين الحال التي هو فيها من ضيق العيش، ومصائب الدنيا، وبين حال من يخاطبهم وما هم فيه من النعيم، والدعة، ثم جمع في قوله : (سنستجدُّ خلافَ الحالتين غداً) وهو معنى توصل إليه بعد سلسلة من المعاني الاستدلالية المتعاقبة المترتبة على بعضها، فقد قرر الفرق بين حالته، وحالة من يخاطبهم مع تأكيده بأن هذا لا يدوم، ولا ذاك، وقد توصل إلى ذلك عن طريق البرهان العقلي من عدم ثبات

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني / د : محمد محمد أبو موسى / ٣١٣ .

تصاريف الزمان على حال واحدة، وهو ما قرره في البيت الثاني، ثم قرر بناءً على هذا ما سكنت إليه نفسه في البيت الثالث من أن الحال ستتبدل حيث سيحسن حاله، ويسوء حالهم نتيجة ذلك، ولا يخفي ما في الأبيات الثلاثة من شدة التشابك، والاتصال بين المعاني المترتبة على بعضها ترتب النتيجة على المقدمة .

ثم أشار الإمام إلى نوع من الكلام تتحد أجزاؤه فيصير كالمعنى الواحد وهو في الحقيقة مكون من أجزاء، ولكن واضعه يلاحظ دقة الترابط، ويحرص على شدة الاتصال، فيضع اللفظ، وعين عقله على موضع ما بعده، وما قبله، وقد زاد من تشابك هذا اللون اعتماده الصورة التشبيهية متعددة الوجه، أو مركّبته في تقرير المعنى مما زاد التشابك، وعمّق الصلات بين أطراف الكلام، وقد ثمّن الإمام غالياً من قيمة هذا اللون قال :(وإذا قد عرفتَ هذا النَّمطَ منَ الكلام وهو ما تَتَّحدُ أجزاؤه حتى يُوضَعَ وَضْعاً واحداً فاعلمْ أنه النمطُ العالي والبابُ الأعظمُ لا تَرى سلطانَ المزيَّة يعظُمُ في شيءٍ كعِظَمِه فيه، ومما ندرَ منه، ولَطُف مأخَذُه، ودَقَّ نظرُ واضعِه وجَلَّى لك عن شأوٍ قد تُحسردونَه العِتاقُ وغايةٍ يَعْيا من قَبْلها المذَاكي القُرَّحُ الأبياتُ المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين – بيتُ امرىء القيس – الكامل – :

كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ رَطْباً ويابساً ... لَدى وَكْرِها العُنَّابُ والحشَفُ البَالي (١)

(١) ديوان امريء القيس / ص ٦٨ .

وبيتُ الفرزدق – من الكامل – :

والشَّيبُ ينهَضُ في الشَّبابِ كأنَّهُ ... لَيْلٌ يَصيحُ بِجَانبَيهِ نَهارُ (١)

وبيتُ بشار – طويل – :

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤوسنا ... وأسْيافَنَا لَيْلٌ تَهاوى كَواكِبُهْ (٢)(٣)

فقد أشار في بيت امريء القيس إلى التشبيه المتعدد الوجه، وتعدد الوجه يؤدي إلى نوع من تشابك المعاني واتصالها لأنه يذكر المشبه المتعدد ثم يذكر لكل مشبه ما يعود عليه .

وفي المتعدد تستطيع أن تجعله عدة تشبيهات مستقلة بأن تفرد كل تشبيه بأركانه على حدة ويستقيم المعنى، كأن تقول في البيت السابق : قلب الطائر الرطب كالعناب، واليابس كالحشف البالي، فيعطي كل تشبيه صورة مستقلة، ولكن هذا الصنيع ينقص من قيمة المعنى المفهوم من الصورة الكلية التي يفيدها الجمع بين التشبيهين في صورة واحدة .

أما في البيت الثاني والثالث فإن الوجه فيهما مركب يتصل فيهما الجزءان أو الأجزاء داخل الطرفين وينتزع من مجموع كل منهما هيئة مشتركة تكوّن وجه الشبه والمغزى في كلٍ منهما لا يتم إلا بمجموع أجزاء طرفيه حتى أنك إذا أسقطت جزءاً من هذه الأجزاء، من أي موضع كان، أخل ذلك بالغرض من التشبيه.

ولا يمكن فيه فض التشبيه، وجعله تشبيهات متعددة ؛ لأن الصورة فيه شديدة التداخل، ولكون ذلك يفسد الغرض المراد من التشبيه أو يقلل من بلاغته ويذهب بالصورة المركبة ولذلك جعله الإمام النمط العالي والباب الأعظم ؛ لدقة الصنعة، وعمق الفكرة، وكثرة تشعبها، وتعدد روابطها ؛ ولذلك لا يتسنى هذا اللون من البيان إلا لمن جمع فكراً ثاقباً، ونظراً صائباً مع فطرة سليمة، ومِلْكٍ لأدوات لغته .

---

(١) ديوان الفرزدق . ٥٥٣

(٢) ديوان بشار ./ ٣١٢

(٣) دلائل الإعجاز /٩٥: ٩٦ .

تلك ألوان البديع التي تحدَّث عنها الإمام عبد القاهر والتي لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما وردت خادمة لقضايا أخري كقضية النظم التي جعلها الإمام طريقاً لبيان الوسيلة لفهم القرآن الكريم وما صنعه الإمام وما قاله عن هذه الألوان خير دليل على قيمة فنون البديع، وأنها ليست مجرد علم تزيين، وتحسين يؤكد ذلك أن الإمام لم يشر من قريب، أو بعيد إلى أن هذه الفنون تأتي بعد مطابقة الكلام، ووضوح الدلالة، كما قال من بعده ممن قسموا البلاغة وجعلوا حظ فنون البديع في التحسين تبعاً لقسمتهم حيث جعلوا البيان لمعرفة طرق إيراد الكلام مع وضوح الدلالة، وجعلوا علم المعاني لمعرفة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومن ثَمْ جعلوا علم البديع لمعرفة وجوه تحسين الكلام بعد رعاية ما يقتضيه العِلمان السابقان .

بل إن الإمام عبد القاهر دفع التوهم عن بعض الألوان التي كان يُعتقد أن الحسن، والقبح فيها من جهة اللفظ كما فعل في الجناس، والاعتراض، والسجع، وقرر في ألوان أخرى أنها النمط العالي، والباب الأعظم كما فعل في المزاوجة، وحسن التقسيم . كما يجد المتأمل للبديع عند الإمام مع نظرته المعتدلة لفنونه أنه بيَّن خصائص هذه الفنون وجلىَّ أبعادها، وأوضح مميزاتها، وأشار إلى أثرها على السياق على نحو لم يسبق إليه وإن كان مسبوقاً في ألوان البديع .

من ألوان البديع في تطبيقات الإمام عبد القاهر.

تميز أسلوب الإمام عبد القاهر بصفاء الكلمة، ووضوح الفكرة، وجمال العبارة، وعمق المعنى، فالمتأمل للكلمة المفردة عند الإمام يجد أنها خالية من العيوب التي تخل بفصاحتها كالغرابة، والوحشية أو الثقل أو مخالفة القياس كما أنها في قمة الدقة في الموضع الذي يضعها فيه متناسقة تمام التناسق مع السياق الذي ترد فيه .

أما عن وضوح الفكرة فقد كانت أفكاره في قمة الوضوح يطرح الفكرة ثم يشرحها شرحا وافياً من خلال مثال أو أكثر حتى يطمئن إلى رسوخها في ذهن المخاطب، ثم يرد على الاعتراضات الواردة عليها، وينقض ما يعارضها، أو يشكك فيها، وربما افترض هو افتراضات مما يتصوَّر أن يتذرع بها مشكك فيما يعرض من مسائل .

ومن الجدير بالذكر أن الإمام كان يمزج بين الحديث النظري، والمنهج التطبيقي، فإذا تحدث عن لون من ألوان البلاغة، وجدت صداه فيما يكتب، وكثر فيه كأنه يطبق قوله النظري في نتاجه العملي فإذا تحدَّث عن الاستعارة – مثلا- كثر ورودها في أسلوبه، وإذا تحدث عن التشبيه كذلك، وإذا تناول حديثه لوناً من ألوان البديع كان صداه في أسلوبه .

وهو من العلماء الذين جمعوا بين العلم، والعمل مع إخلاص جنَّبه مباهاة العلماء ومماراة السفهاء، والرغبة في صرف وجوه الناس إليه .

قال الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مقدمة كتابه بغية الإيضاح (وكان أسلوب عبد القاهر في كتابيه أسلوباً بليغاً ممتازاً يساعد على تربية ملكة البلاغة ولا يفسدها ولا عيب فيه إلا أن بسرف في العبارات المترادفة حتى تطغى على تقرير القواعد، وعلى ما عُني به من استخلاص أسرارها من الشواهد النثرية والشعرية وهو فيما عُني به من الأمرين الناقد الأديب والبليغ الممتاز وقد طفر بالبلاغة طفرة لم يسبق إليها)([1]).وما ذكره الدكتور عبد المتعال الصعيدي، وعدَّه إسرافا هو من مزايا أسلوبه ؛ لأنه كان شديد الإلحاح في تقرير القواعد، ولمعرفته بطبيعة أهل الجدل، والاعتراض في عصره على اختلافهم بين الفهم المعاند، وبين الجاهل المتابع لغيره كان يفترض الاستفسارات، ويرد عليها، فيفترض ما يخطر ببال الخصم المعاند ويرد عليه، ويفترض ما يمكن أن يدور ببال المتسرع والمتحذلق فيرد على كل واحد بما يتناسب مع حالته، فتبدو كأنها تكرار لنفس المعنى وهي عنده من مطابقة الكلام لمقتضى الحال التي هي عين البلاغة . ثم إن المتأمل لطبيعة النسق البياني في القرن الخامس الذي عاش فيه الإمام عبد القاهر يجد أنه يسير في اتجاه الميل إلى الاستعراض البياني الظاهري المتكلف الذي يسعى إلى جذب الأسماع ولفت الانتباه خلال حشد ما أمكن من ألوان البديع، وصار الشاعر أو الناثر يسعى جاهداً في بيان قدرته العلمية والمعرفية وتقرير إحاطته بفنون القول عن طريق رصفها في بيت، أو أبيات، أو فقرة، أو فقرات مع ضعف الملكات وغياب الحس وتدني مستوى الحس اللغوي لدى المتلقي قال ابن رشيق: " وان قال قائل ما بالكم يا معشر

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح / عبد المتعال الصعيدي / ٤ / الطبعة ١٧ / مكتبة الآداب / ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ م .

المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلت في أيديكم المعاني وضاق بكم المضطرب؛ قلنا: أما المعاني فما قلت، غير أن العلوم والآلات ضعفت، وليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم في نقص وأن الدنيا على آخرها، ولم يبق من العلم إلا رمقه، معلقاً بالقدرة، ما يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع إلى الأرض إلا بإذنه " (٤).

وبقيت قلة قليلة من أهل الذوق، والطبع حباهم الله بفطرة سليمة وذوق سليم وبديهة حاضرة أدركت الوجه الحسن في فن القول فأبت أن تنحو نحو المغالين الخارجين عن حد البيان المستقيم في تعاطي فنون القول، ولكنهم، ومع حرصهم على عدم السير خلف هؤلاء تأثروا بهم سلبا أو إيجابا في بعض جوانب أساليبهم المعرفية، أو الأسلوبية .

ثم إن هذه القلة أفردت أفراداً دانت لهم اللغة وتوفر عليها حسّهم وأعانهم طبع مستقيم رضعوها من القرآن في طفولتهم، ومن أبلغ بيان بشري من حديث رسول الله ﷺ في صباهم فهذّب هذا من طبعهم وارتقى بذوقهم، وأنار بصائرهم يحدوهم إخلاص عميق فصدر قولهم يصدقه فعلهم فترى القاعدة في معانيهم وتطبيقها في مبانيهم، وعلى رأس هؤلاء الإمام عبد القاهر، لذلك نجد ألوان البديع في حديثه كثيرة ومع كثرتها تراها موزعة توزيعاً دقيقاً في مساحة المعنى بحيث تشعر بأثرها الخلاب وقيمتها العالية دون أن تدرك قلقاً، أو اضطراباً، أو تشعر بكثرة هذه الألوان، وهذا هو عين ما نص عليه الإمام في كلام الأقدمين :(ولستَ تجد هذا الضرب يكثُر في شيءٍ، ويستمرُّ كَثْرَته واستمرارَه في كلام القدماء، كقول خالد: ما الإنسان، لولا اللسان، إلا صورة ممثلة، وبهيمة مُهْمَلة، وقول الفضل بن عيسى الرقاشي: سَلِ الأرض فقل: مَنْ شَقَّ أنهارك، وغرسَ أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تُجبك حِواراً، أجابتك اعتباراً، وإن أنتَ تتبّعته من الأثر وكلام النبي ﷺ تَسِقْ كلَّ الثقة بوجودك له على الصِّفة التي قَدمتُ، وذلك كقول النبي ﷺ: " الظُّلْم ظُلُماتٌ يوم القيامة "، وقوله ﷺ : " لا تزالُ أُمَّتي بخيرٍ ما لم ترَ الغنى مَغْنَماً، والصدقةَ مَغْرَماً "، وقوله ﷺ: " يا أيُّهَا الناس؛ أفْشُوا السلام، وأطْعِمُوا الطعام، وصِلُواْ الأرحامَ، وصَلُّوا بالليلِ، والناسُ نِيامٌ، تدخلُوا الجنَّةَ بِسَلامٍ "، فأنت لا تجد في جميع ما ذكرتُ لفظاً اجتُلِب من أجل السجع، وتُرك له ما هو أحقُّ بالمعنى منه

وأبرُّ به، وأهدَى إلى مَذْهبه)[1] وهو ما طبَّقه فعلاً في كلامه فإذا تأملت السجع وجدته في كلام الإمام على هذه الصفة .

السجع في كلام الإمام عبد القاهر .

استقر عند الإمام عبد القاهر خلال نظره في القرآن الكريم، وحديث الرسول ﷺ وكلام العرب الخُلَّص أن السجع لون من ألوان البلاغة كغيره إذا ما استخدم في موضعه حقَّ الاستخدام كان له أحسن الأثر، وأن الكلام المسجوع كغيره من الكلام فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، والمعول عليه هو طريقة الاستخدام، وقد ورد في القرآن الكريم على أحسن صورة في الكلام المعجز، وفي حديث الرسول ﷺ الذي هو أعلى أساليب البشر (فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم، وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك، فمنه ما روى عنه عليه السلام من أنه عوَّذ الحسن والحسين عليهما السلام فقال: أعيذهما من السامة والهامة وكل عين لامة)[2] وإنما أراد ملمة، فلا تباع الكلمة أخواتها في الوزن، قال: لامة.وكذلك ما جاء عنه ﷺ أنه قال: خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة، فقال: مأمورة من أجل مأبورة والقياس: مؤمرة.
وجاء في الحديث: يرجعن مأزورات غير مأجورات. وإذا كان هذا مقصوداً له في الكلام المنثور، فاستعماله في الشعر الموزون أقمن وأحسن)[3]

السجع من أكثر الألوان البديعية وروداً في حديث الإمام عبد القاهر وقد ورد دون تكلف ولا تعمل وإنما هو إرسال للنفس على سجيتها مع تمكن من أدوات اللغة وحضور وبديهة نأت به عن التكلف، وكيف يتكلف وهو الذي حذَّر منه وبيَّن أثره، وخطره، وما جاء في كلامه منه تطلَّبه السياق ولو تركه لكان متكلفاً، تأمل حديثه عن التجنيس والسجع في قوله : (فقد تبين

---

(١) أسرار البلاغة / ١٢ .

(٢) السنن الكبرى للنسائي / ٤/ ٤١١/ ت :دكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي/ الطبعة: الاولى
سنة:١٤١١- ١٩٩١ م طبعة:دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر / ص : ٨٥ .

من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاصَ هذا النَّحو بالقَبُول: هو أنَّ المتكلم لم يَقُدِ المعنى نحوَ التجنيس والسَّجع، بل قادَه المعنى إليهما، وعَبر به الفرق عليهما، حتى إنه لو رَامَ تَركَهُما إلى خلافهما مما لا تجنيسَ فيه ولا سجعَ، لدخَل من عُقُوق المعنى وإدخال الوَحْشَة عليه، في شبيه بما يُنسَب إليه المتكلف للتَّجنيس المستكْرَه، والسجع النَّافر، ولن تجد أيمنَ طائراً، وأحسنَ أوّلاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلبَ للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيّتها، وتَدَعها تطلب لأنفسها الألفاظَ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها، ولم تَلْبَسْ من المعارض إلا ما يَزِينها، فأمّا أن تَضَع في نفسك أنه لا بُدَّ من أن تجنس أو تَسْجَعْ بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنتَ منه بِعَرَض الاستكراه، وعلى خَطَرٍ من الخطأ والوقوع في الذَّمّ) (١).

تأمل قوله (ولن تجد أيمنَ طائراً، وأحسنَ أوّلاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلبَ للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيّتها) فقد جاءت الفقرات مسجوعة في غاية الحسن دون تكلف، فلم يعمد إلى جميع فقراته فيسجعها، ولكن جاء بعضها عفوياً في تمام الانسجام وإذا تأملنا خصائص السجع التي ذكرها الإمام، وطبقناها على قوله وجدناها كما قرر فقد ورد مستدعى من المعنى ولم يتوالى في كل الفقرات، ولم يؤدي إلى تعمية المعنى بل أدى إلى إبرازه في معرض حسن وثوب قشيب وهو ما نادى به في تعاطي السجع .

راجع قوله وهو يتحدَّث عن مرجع الحسن بين اللفظ والمعنى :(فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجْعَلُ الثناءَ عليه من حيث اللّفظ فيقول: حُلْوٌ رشيق، وحَسَنٌ أَنيقٌ، وعذبٌ سائغٌ، وخَلُوبٌ رائعٌ، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوالٍ ترجعُ إلى أجْراس الحروف، وإلى ظاهر الوضعِ اللغويّ، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده، وفضلٍ يَقْتدحُه العقلُ من زِناده) (٢).فأنت ترى استخدام الإمام للسجع كما أشار في الحديث النظري – بعد ضمان عدم الجناية على المعنى أو عسر فهمه مع عدم الحرص عليه، وعدم رفضه عند مواتته .

ولعل كثرة السجع في أسلوب الإمام يرجع إلى عدة أمور :

---

(١) أسرار البلاغة / ١٤ .

(٢) أسرار البلاغة / ٥ .

- رغبة الإمام في تيسير الحفظ والنقل للقواعد العلوم التي يقررها والسجع يساعد على ذلك.
- قدرة الإمام على التصرف في فنون القول دون إخلال بالمعنى .
- شيوع هذه الألوان في الخطاب العلمي وفي كتابات القرن الخامس الهجري وهم من كان يخاطبهم الإمام .

كما نجد الجناس على هذه الصفة في كلامه يرد حيث يتطلبه المعنى، وحيث يخدم الغرض، ويكون لوجوده فائدة محققة، وحيث لا يعكر على المعنى، فإذا نظرت إلى الفقرة السابقة من كلام الإمام وجدت الجناس على هذه الصفة في قوله : (حُلْوٌ رشيق، وحَسَنٌ أنيقٌ، وعذبٌ سائغٌ، وخَلُوبٌ رائعٌ) فبين قوله رشيق وأنيق جناس ناقص، وكذلك في هذه الفقرة تناسب بين الألفاظ والمعاني فقوله :(حلو – حسن – عذب – خلوب) ألفاظ من جنس واحد من حيث دلالتها على المخبر الجيد المرغوب وكذا بين قوله (رشيق – أنيق – سائغ – رائع) فكلها ألفاظ من وادٍ واحد في الدلالة على المظهر المقبول .

تأمل قوله : (وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أنّ الحُسْن والقُبْح لا يعترض الكلامَ بهما إلاّ من جهة المعاني خاصّةً، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيبٌ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيدٌ وتصويب، أما الاستعارة، فهي ضربٌ من التشبيه، ونَمَطٌ من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتُدركه العقول، وتُستَفتَى فيه الأفهامُ والأذهان، لا الأسماع والآذان) (١)

تجد فيها من ألوان البديع الطباق بين القبح، والحسن، وبين التصعيد والتصويب وبين التحسين وخلاف التحسين وهي صميم المعنى الذي يتحدث فيه فلم يجتلبها من أجل أن يطابق، كما تجد الجناس بين قوله الأذهان والآذان، أيضا هناك تناسب في الألفاظ والمعاني بين ألفاظ (القلوب – العقول – الأفهام – الأذهان – الأسماع – الآذان) من حيث أنها من الجوارح المسئولة عن الوعي والإدراك أو متعلقة بهما كما أن هناك تناسباً في الجمع بين الأفعال : (تعيه – تدركه – تستفتي)

---

(١) أسرار البلاغة / ٢٠ .

من حيث أنها أفعال تدل على طلب حصول الفهم في العقل كما أن هناك سجع في الفقرتين الأخيرتين .

ومنها التصريع وقد ورد في بعض أبيات للإمام في حديثه عن قضية النظم قال :

إنّي أقولُ مَقالاً لستُ أُخفيه ... ولستُ أرهَبُ خصْماً إنْ بَدا فيه

ما مِنْ سبيلٍ إلى إثباتِ مُعجزةٍ ... في النَّظْمِ إلا بما أصبحْتُ أبديه

فما لنَظْمِ كلامٍ أنتَ ناظمهُ ... مَعْنًى سوى حُكْمِ إعرابٍ تُزجّيه (١)

والتصريع في البيت الأول حيث استوى آخر جزء في صدر البيت، وآخر جزء في عجزه في الوزن، والروي، والإعراب، وهذه الأبيات من مقطوعة من الشعر التعليمي الذي ظهر في القرن الثاني الهجري – وما بعده – وهو نظم أنواع من المعارف، والعلوم. مما كان له أثر كبير في تنوع المعارف وتنظيمها، وازدياد الإقبال على التعلم، والتعليم ؛ لأن النظم وسيلة سهلة. ومشوقة للحفظ والنقل، وقد شمل هذا النوع من الشعر كثيراً من العلوم وهو نظم علمي يخلو من العواطف، والأخيلة، ويقتصر على الأفكار، والمعلومات، والحقائق العلمية المجردة، وقد تضمنت هذه الأبيات رأي الإمام في قضية الإعجاز، وأنه يتمثل في النظم، وبيان المقصود من النظم، والتعريف به بطريقة تحقق لطالبه سهولة الحفظ، مع الاختصار وسرعة الاستحضار كما أنها تحقق لمضمونه سرعة الانتشار، والثبات في الذهن .

ومن المبالغة الطريفة في الشعر المنسوب إليه يمدح الصاحب نظام الملك قوله:

---

(١) الأبيات للإمام عبد القاهر في مقدمة دلائل الإعجاز / ٩ .

لوْ جاودَ الغيثَ غَدا ... بالجود منه أجْدرا
أو قِيسَ عَرفُ عُرْفِه ... بالمِسكِ كانَ أعطرا
ذو شِيَمٍ لو أنّها ... في الماء ما تغيّرا
وهِمّةٍ لو أنّها ... للنّجم ما تَغوّرا
لو مسَّ عوداً يابِساً ... أورقَ ثُمَّ أثْمرا (١)

فقوله (لو مسَّ عوداً يابسا أورق ثم أثمرا) من المبالغة المقبولة لاستخدامه حرف الامتناع لامتناع (لو) إضافة إلى أنه بسبيل المدح، ويقبل فيه ما لا يقبل في غيره من الأغراض والمقامات .

نظرية الإمام عبد القاهر في البديع

من الواضح البين أن الإمام – رحمه الله – لم يكن يقصد البديع بالحديث لذاته وإنما كان، وسيلة لبيان أوجه الإعجاز، وقد صرح بذلك بعد أن تحدث عن الأمور التي يجب أن تراعى في الجناس، والسجع، وما يحسن، وما يقبح في استخدامهما، ومرد الفضل، والمزية فيهما، وأشار إلى الغرض من تناولهما وأنهما وسيلة لغاية يسعى الإمام إلى تحقيقها .

قال: (والقول فيما يحسن وفيما لا يحسن من التجنيس والسجع يطول ولم يكن غرضنا من ذكرهما شرح أمرهما ولكن توكيد ما انتهى بنا القول إليه من استحالة أن يكون الإعجاز في مجرد السهولة وسلامة الألفاظ مما يثقل على اللسان وجملة الأمر أنا ما رأينا في الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التي هو السبب فيها في الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والإيجاز وصد بوجهه عن جميعها وجعل الفضل كله والمزية أجمعها في سلامة الحروف مما يثقل كيف وهو يؤدي إلى السخف والخروج من العقل كما بينا واعلم أنه قد آن لنا أن نعود إلى ما هو الأمر الأعظم والغرض الأهم والذي كأنه هو الطلبة وكل ما عداه ذرائع إليه وهو المرام وما سواه أسباب للتسلق عليه وهو بيان العلل التي لها وجب أن يكون لنظم مزية على نظم وأن يعم أمر التفاضل فيه ويتناهى إلى الغايات البعيدة ونحن نسأل الله تعالى العون على ذلك والتوفيق له والهداية إليه)(٢). وهذا نص

---

(١) الأبيات منسوبة للإمام عبد القاهر في إنباه الرواه / ٢/ ١٨٩ .

(٢) دلائل الإعجاز / ٥٢٤ .

صريح من الإمام بأنه لم يقصد التأليف في ألوان البديع ولم يحاول وضع نظرية فيه، ولم يحاول تتبع أنواعه، وما يتعلق بها، وإنما تحدث عن ألوان استدعاها غرضه من تأليف الكتابين، وقد سبق أن أشرنا إلى أسباب ذلك .

ولعل من صوارف الإمام عن التأليف في البديع أنه يتصل بالناحية الصوتية التي أقام عليها معاصره ابن سنان الخفاجي كتابه سر الفصاحة، وتلك ناحية ربطها ابن سنان برأي النظام القائل بالصرفة وكان الإمام عبد القاهر يرفض الأخذ بهذا القول ولعل الناظر في الرسالة الشافية يلحظ دفع عبد القاهر هذه النظرة .([1])

قال الدكتور شوقي ضيف :(قال الدكتور شوقي ضيف عن موقف الإمام من علم البديع (وواضح أنه لم يحاول وضع نظرية في علم البديع وإن كان فصَّل القول في أسرار البلاغة عن الجناس والسجع وحسن التعليل وأشار في غيره إلى الطباق ولكنه لم يحاول، وضع نظرية عامة له ولو صنع لأعفى أصحاب البديع من توزع مباحثهم فيه توزعا حال بينه، وبين أن تصبح له نظرية متشابكة على نحو تظريق المعاني، والبيان)([2])

وقد أشار الشيخ أبو موسى إلى أن الإمام ذكر الاستعارة، والتطبيق وسائر أقسام البديع، ولم يفصل الكلام إلا في الاستعارة، ولم يذكر شيئا في بقية أقسام البديع، إلا سطرين في الطباق، وأنه معنوي لأن التضاد الذي هو أصل الطباق يستحيل أن يكون في غير المعنى، ومعروف أن الاستعارة عند الشيخ من البديع، ولا شك أن الفنون البديعية التي لم يتكلم عنها راجعة إلى المعاني، فمراعاة النظير معان، والمذهب الكلامي معان، وتأكيد المدح بما يشبه الذم معان، فهل هذا الارتباط الظاهر بالمعاني هو الذي صرفه عنها، وأنه رحمه الله إنما أمسك بقلمه ليصحح أوهاما لا ليشرح مسائل ؟

---

(١) ينظر معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني / د:محمد بركات حمدي أبو علـــي / ص : ٧٨ /الطبعـــة الأولى / دار الفكر/ الأردن١٤٠٥ هـــ ١٩٨٤ م .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص : ٢١٩ .

وماذا كنا نقرأ لو غمس الشيخ قلمه في هذه الفنون ؟ وهل تستطيع أن تدرسها على طريقته ؟ هل يستطيع الخالف أن يحكم طريقة السالف ؟)[1]

ومع أن الإمام لم يقصد البديع لذاته، وإنما تعرض لما تعرض له منه خلال دراسة قضايا أخرى إلا أننا إذا راجعنا كلامه في البديع، وجمعنا أطرافه نجد أنه يضع خلال إشاراته في البديع ما يصلح أن يكون طريقة مثلى وقاعدة كلية في تعاطي هذه الفنون وأن ما ذكره في الألوان القليلة التي وردت في حديثه يمكن أن ينسحب على ألوان البديع الأخرى، وأن ما ذكر آيةً، وعنواناً لما لم يذكر فتلك طريقة العلماء الذين تربَّى على أيديهم، وتأثر بهم تأمل قوله :(ولم أزلْ منذُ خدمتُ العِلْمَ أنظرُ فيما قاله العلماءُ في معنى الفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ والبَراعةِ وفي بيانِ المَغْزى من هذه العباراتِ وتفسيرِ المُرادِ بها فأجدُ بعضَ ذلك كالرَّمز والإيماء والإشارةِ في خَفَاء . وبعضَه كالتنبيه على مكانِ الخبيء ليُطلبَ ومَوضعِ الدَّفينِ لِيبحثَ عنه فيُخرجَ . وكما يُفتحُ لك الطَّريقُ إلى المطلوبِ لتسلكَه وتوضَعُ لك القاعدةُ لتبنيَ عليها...).

وقد أشار إلى جملة من القواعد تصلح إذا ما روعيت أن تكون قاعدة كلية في استخدام البديع منها.

١- لزوم سجية الطبع في تعاطي فنون القول، وهذا أصل لا يعدل به شيء في التعامل مع ألوان البلاغة عموماً، وفي ألوان البديع خصوصاً، وقد أشرنا سابقاً إلى أن أهم خصائص البديع في العصر الجاهلي هو الطبع، ومنها تتفرع أكثر مميزاته، وقد قرر الإمام ذلك في قوله :(ولن تجد أيمنَ طائراً، وأحسنَ أوّلاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلبَ للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيّتها، وتَدَعها تطلب لأنفسها الألفاظَ)[2].

وقد علل الإمام لذلك بأن الطبع يحمي صاحبه من الاستكراه الذي يعرضه للذم لأنه إذا لم يتعمد السجع فولد المعنى متلبسا بلفظه الذي هو أليق به قال :(فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها، ولم تَلْبَسْ من المعارض إلا ما يَزِينها، فأمّا أن تَضَع في نفسك أنه لا بُدَّ من أن

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر /د: محمد محمد أبي موسى / ١٣٥ .

(٢) أسرار البلاغة / ١٤ .

تجنس أو تَسْجَعْ بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنتَ منه بِعَرَض الاستكراه، وعلى خَطَرٍ من الخطأ والوقوع في الذَّم)[1]

وليست قيمة الطبع قاصرة على ذلك بل إنه يمكّن للمعنى في نفس المتلقي، ويتلقاه بالقبول، ولا يضطرب في فهمه، ولا يتردد فيه، ولا يغمض عليه بل إنه أقرب طريق لعقله، وقد رأى الإمام هذه الأمور متحققة عند المتقدمين قال:(ولهذه الحالة كان كلامُ المتقدِّمين الذين تركوا فَضْل العناية بالسجع، ولَزِموا سجِيَّةَ الطبع، أمكنَ في العقول، وأبْعَد من القَلَقِ، وأوضحَ للمراد، وأفضل عند ذوي التَّحصيل، وأسلمَ من التفاوتِ، وأكْشَفَ عن الأغراض، وأنصَرَ للجهة التي تَنحو نَحْوَ العقل، وأبعدَ من التَّعمُّلِ الذي هو ضربٌ من الخِداعِ بالتزويق، والرضَى بأن تَقَع النقيصةُ في نفس الصُّورة، وإنّ الحِلْقَةَ، إذا أكثر فيها من الوَشْم والنقش، وأثْقل صاحِبُها بالحَلْي والوَشْي، قياسُ الحَلْي على السيف الدَّدَان، والتوسُّعِ في الدعوى بغير بُرْهان، كما قال: إذا لم تُشاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا ... وأَعْضَائها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ [2]

ورغم أن كلام الإمام السابق كان عن السجع خاصة إلا أنه ينسحب على كل ألوان البديع الأخرى خاصة ألوان البديع اللفظي ذات الوقع الرنان، والتي يتسابق الشعراء، والكتاب في استعمالها حتى يقعوا في الاستكراه، أما إرسال النفس على سجيتها، فإنه لا يوقع في الاستكراه قال الإمام: (وهكذا حال كلام الناس في كتبهم ومحاوراتهم لا تكاد تجد فيه هذا الاستكراه لأنه إنما هو شيء يعرض للشاعر إذا تكلف وتعمل فأما المرسل نفسه على سجيتها فلا يعرض له ذلك)[3].

قال الشيخ أبو موسى عن عبارة الإمام عن لزوم سجية الطبع أنها أفضل ما قاله عبد القاهر في الجناس والسجع والفنون البلاغية كلها فهي كلمة نفيسة، وقاعدة رفيعة ليس في الشعر والبيان فحسب وإنما في كل ما يصدر عن الإنسان، وليس أقبح من التكلف في أي شيء)[4].

---

(١) أسرار البلاغة / ١٤ .

(٢) أسرار البلاغة / ٨ .

(٣)دلائل الإعجاز / ٦١ .

(٤) ينظر مدخل إلى كتابي عبد القاهر / د: محمد محمد أبو موسى / ١٣٠ .

أمر آخر يتصل بالطبع، والسجية يجب مراعاته لإحداث توازن بين الإسراف في استخدام ألوان البديع، أو تركها كليا، لأن في كليهما مخالفة للطبع وهو عدم ترك اللون البديعي عندما يطلبه المعنى قال الإمام عبد القاهر :(فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضي اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يَقُد المعنى نحو التجنيس والسجع بل قاده المعنى إليهما وعثر به عليهما حتى أنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه في شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره والسجع النافر)([1]).

٢- الثقة في سلامة المعنى بحيث يحرص المتعاطي لفنون البديع عليه أولا ولا يحمله اللون البديعي على تكدير المعنى أو انتقاصه أو انغلاقه أو صعوبة فهمه قال الإمام :(فإن أردت أن تعرف مثالا فيما ذكرت لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه، وانتقاصا له وتعويقا دونه ...)[2]

٣- عدم القصد إلى هذه الألوان، والاستكثار منها، وعدم الحرص على توليها لأن ذلك أمارة التكلف الذي يحدث شقاقاً بين اللفظ والمعنى، وسرعان ما يسبب الملل، والنفور ويورث الذم قال الإمام مقرراً ذم الاستكثار لألوان البديع، والولوع بها، وسر هذا الذم :(فقد تبين لك أن ما يُعطي التجنيس من الفضيلة، أمرٌ لم يتمَّ إلا بنُصْرةِ المعنى، إذ لو كان باللفظ وَحْدَهُ لما كان فيه مستحسنٌ، ولما وُجد فيه معيبٌ مُسْتهجَن، ولذلك ذُمَّ الاستكثار منه والوَلُوعُ به، وذلك أن المعاني لا تَدِين في كل موضع لما يَجْذبها التجنيس إليه)[3]

---

(١) سرار البلاغة ص : ١٤ .

(٢) سبق الحديث عنه في البحث ص: ( ) وموضعه في أسرار البلاغة / ص : ١٤ .

(٣) أسرار البلاغة / ٨ .

الخاتمة

عرض الإمام عبد القاهر لفنون البديع في إطار قضية النظم التي أراد خلالها أن يشرح ويوضح الوسيلة لفهم القرآن، وإذا كانت تلك غايته فإنه أراد بما يعرض أن يصحح أغاليط، ويوضح مفاهيم، ويقرر الصورة المثلى التي يجب أن تكون عليها تلك المفاهيم، والتي نستطيع عندها أن نفهم ما ورد منها في القرآن، وحديث الرسول ﷺ على الوجه الأمثل، وتلك غاية شريفة سعى إلى تحقيقها الإمام بما عرض له من ألوان البديع .

- قرر الإمام في أثناء عرضه لما عرض من ألوان البديع مجموعة من القواعد تصلح - إذا روعيت في بناء الكلام - أن تكون قاعدة كلية في تعاطي فنون البديع على وجه يحقق الغرض المنشود منها ويجعل النفوس تتلقاها بالقبول، ويضمن لها الارتباط بالمعنى، وهي قواعد مستقاة من منبعها الصحيح من القرآن الكريم، وكلام الرسول ﷺ وكلام فصحاء العرب شعراً، ونثراً، وقد طبَّق ذلك عمليا في أسلوبه في كتابيه الدلائل، والأسرار بطريقة تؤكد صدق ما ذهب إليه .

- تحدث الإمام عن جملة من علامات التكلف التي تبيِّن المتكلف في الاستعمال ممن لزم سجية الطبع، ونبَّه إلى ضرورة تجنبها حتى تأتي هذه الألوان متسقة مقبولة منسجمة مع المعنى، ومن أمارات التكلف التي أشار إليها أن ينوي الشاعر، أو الناثر أن يأتي بلون معين من ألوان البديع كما فعل أبو العلاء المعري في اللزوميات، ومن أمارات التكلف ــ أيضا ــ تتابع ألوان البديع كما فعل أصحاب البديعيات، وهذه التتابع دليل على التكلف، وما ورد في مطبوع الكلام الجاهلي نثرا، وشعرا ليس فيه تتابع، وإنما كان يتفق لهم في البيت بعد البيت، ومن أمارات التكلف التي أشار إليها الإمام أن يجلب اللفظ من أجل اللون البديعي لا من أجل المعنى فيجور عليه، ويوقع السامع في التعمية، ويصير كالإلغاز، ومن علامات التكلف الاستكثار من لون معين، - وإن لم يتتابع - مما يجعله بارزا في النص على غيره الأمر الذي يوحي بكلف به .

- تبين خلال الدراسة أن الإمام لا يرى فرقاً بين ألوان البلاغة من ناحية أهميتها إذا ما أحسن المتعاطي لها توظيفها، وابتعد عن التكلف، والإسراف، يستوى في ذلك الجناس والسجع مع

الإستعارة بدليل أنها عدَّها من ألوان البديع، ولم ير حاجة إلى تقسيم علوم البلاغة كما فعل من بعده.

- الاتجاه الذي سلكه الإمام عبد القاهر في البديع يؤكد قيمته من الناحيتين : من ناحية التأثير على المعنى، وقوة اتصاله به وهو ما نبه إليه من بداية الكلام في أنواع البديع، ومن الناحية اللفظية بما يحقق من تناسق، وتناغم بينها يجعلها مقبولة في السمع مستلذة في النفس وهو أمر في غاية الأهمية ؛ لأن غرض المتكلم التأثير في المخاطب، وأولى خطوات التأثير فيه هي جذب سمعه، وتحقيق انصاته والسيطرة على حواسه، وهو تمهيد للمعنى لا يصل من دونه، ثم إنه يعمل على تثبيت المعنى في ذهن السامع بعد تقريره ؛ لأنه ييسر الحفظ، ويعلق في النفس، وهو بين التمهيد، والتثبيت يسهم كغيره من الألوان البلاغية في هذا التقرير للمعنى ؛ ولذلك كان يكثر في مقدمات الخطباء، ومطالع الشعراء، الأمر الذي يوجب ردَّ قول من ادَّعى أن علم البديع علم تزيين ظاهر فقط كما يوجب العناية بإبراز جماليات البديع من ناحيتيه المعنوية، واللفظية، التي قررَّها الإمام عبد القاهر لسلامة المعنى، وجمال العبارة، ومجانبة التكلف .

فهرس المراجع

- الأحاديث الطوال / المؤلف : سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني / ت : حمدي بن عبد المجيد السلفي/ الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣/ مطبعة الأمة – بغداد .
- الاستذكار (المؤلف : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري / ت : سالم محمد عطا، محمد علي معوض/ الطبعة الأولى، ١٤٢١ – ٢٠٠٠ هـ .
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني / ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م مطبعة المدني بالقاهرة .
- الأعلام للزركلي / الطبعة الثانية عشرة / دار العلم للملايين – بيروت – ١٤٢٢هـ ١٩٩٧م .
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني /ت : سمير جابر/ الطبعة الثانية/دار الفكر/ بيروت .
- البديع بين المتقدمين والمتأخرين / د : إبراهيم عبد الحميد السيد التلب / الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩م / دار الطباعة المحمدية / القاهرة .
- البديع لابن المعتز / ت : اغناطيوس كراتشقوفسكي – ليننغراد / طبعة مكتبة المتنبي ببغداد .
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح / عبد المتعال الصعيدي / الطبعة ١٧ / مكتبة الآداب / ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥ م .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي / ت : محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الثانية / ١٣٩٩هـ ١٩٧٩ م .
- البلاغة تطور وتاريخ / د/ شوقي ضيف / الطبعة التاسعة / دار المعارف .
- البيان والتبيين للجاحظ/ت : المحامي فوزي عطوي / الطبعة الأولى، ١٩٦٨م/ دار صعب – بيروت.
- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري / ت : د : حفني محمد شرف / طبعة لجنة إحياء التراث العربي / ١٩٨٥م.

- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية د/ شفيع السيد/ ط دار الفكر العربي الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.
- الجامع الصحيح سنن الترمذي / ت: أحمد محمد شاكر وآخرون / طبعة دار إحياء التراث العربي / بيروت الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني / ت : سمير جابر / الطبعة الثانية / دار الفكر / بيروت .
- الحيوان للجاحظ / ت : عبد السلام هارون / طبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ - م
- خزانة الأدب وغاية الأرب / المؤلف : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري/تحقيق : عصام شعيتو/ الطبعة الأولى، ١٩٨٧/ دار ومكتبة الهلال – بيروت .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ١٩٩٢م مطبعة المدني بالقاهرة .
- ديوان عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ ٧١٤ م): جمع وشرح د : حسن محمد نور الدين / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .
- ديوان ابن زيدون ورسائله / شرح وتعليق : على عبد العظيم /طبعة نهضة مصر .
- ديوان أبي نواس / شرح وضبط / علي فاغور / دار الكتب العلمية – ٠ بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م .
- ديوان الأخطل / شرح مجيد طراد / دار الجيل بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس / شرح وضبط د / محمد أحمد قاسم / المكتب الإسلامي / الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م .
- ديوان الخنساء / دار صادر – بيروت .
- ديوان الفرزدق .

- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / ت : مصطفى السقا وآخرون /طبعة مصطفى البـــابي الحلبي – سنة ١٣٩١ هـــ – ١٩٧١ م .
- ديوان المهلهل بن ربيعة / تقديم طلال حرب – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى / ١٩٩٦ .
- ديوان النابغة الجعدي / جمع وتحقيق وشرح د : واضح الصمد – دار صادر بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٨ م .
- ديوان النابغة الذبياني / ت : كرم البستاني – دار صادر – بيروت .
- ديوان امريء القيس / ت : حسن الفاخوري بمؤازرة الدكتور : وفاء الباني / دار الجيل– بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـــ ١٩٨٩ م .
- ديوان بشار .
- ديوان حسان بن ثابت / .
- ديوان دريد بن الصمة / ت : د / عمر عبد الرسول – طبعة دار المعارف .
- ديوان ذي الرمة / قدم له وشرحه / أحمد حسن / نسخ دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـــ ١٩٩٥.
- ديوان عبيد الأبرص / طبعة دار صادر .
- ديوان عروة بن الورد، و السمؤل / دار صادر – بيروت – لبنان .
- ديوان عمرو بن كلثوم / دار صادر – بيروت الطبعة الأولى / ١٩٩٦ .
- ديوان كثير عزة .
- ديوان لزوميات أبي العلاء (اللزوميات لأبي العلاء المعري) / طبعة دار صادر – بيروت .
- ديوان مسلم بن الوليد .
- روضة الفصاحة لأبي منصور الثعالبي ت: محمد إبراهيم سليم مكتبة القرآن .
- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .

- سنن ابن ماجه / (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني)/ ت : محمد فؤاد عبد الباقي / الناشر : دار الفكر – بيروت .
- السنن الكبرى للنسائي / ت :دكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي/ الطبعة: الاولى /سنة: ١٤١١هـ – ١٩٩١ م طبعة:دار الكتب العلمية بيروت – لبنان .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي / دار الكتب العلمية – بيروت .
- شروح التلخيص – .ت : نعيم زرزور / دار الإرشاد الإسلامي – بيروت .
- شعر زهير بن أبي سلمى للأعلم الشنتمري / ت : فخر الدين قباوة – دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .
- الصبغ البديعي / د: أحمد إبراهيم موسى / طبعة دار الكتاب العربي – القاهرة / ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .
- الصناعتين لأبي هلال العسكري/ ت : علي محمد البيجاوي، و محمد أبو الفضل إبراهيم / لمكتبة العصرية / الطبعة الأولى سنة/ ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م .
- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي / ت : مصطفى عبد القادر عطا / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .
- طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة /ت : د الحافظ عبد العليم خان، و د / عبد الله أنيس الطباع / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م .
- العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيراوني (٤٣٦هـ) / ت : مفيد محمد قميحة / طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الولى ت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- فوت الوفيات لابن شاكر الكتبي / ت : علي محمد عوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية بيروت / ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ م .
- كتاب العين /المؤلف: الخليل بن احمد الفراهيدي/ الناشر: مؤسسة دار الهجرة/ الطبعة: الثانية في ايران/ تاريخ النشر: ١٤٠٩ .

• الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية / تأليف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي/ ت: عدنان درويش – ومحمد المصري / دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

• اللباب في علل البناء والإعراب / أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري/ ت: غازي مختار طليمات / دار الفكر – دمشق / الطبعة الأولى، ١٩٩٥.

• المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر/ لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي/ ت: محمد محيي الدين عبدالحميد / الناشر : المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥.

• مدخل إلى كتابي عبد القاهر / د: محمد محمد أبي موسى / الطبعة الأولى /١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م /مكتبة وهبة .

• مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي / الطبعة الثانية / دار الكتاب الإسلامي / ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

• معالم المنهج البلاغي عند الإمام عبد القاهر / د : محمد بركات حمدي أبو علي / طبعة دار الفكر عمان .

• معاهد التنصيص على شروح التلخيص /الشيخ عبد الرحيم أحمد العباسي ت ٩٦٣/ ت محمد محي الدين عبد الحميد / عالم المكتب – بيروت .

• مفتاح العلوم للسكاكي / ت : نعيم زرزور / طبعة دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.١٩٨٧ م .

• مراجعات في أصول الدرس البلاغي د: محمد محمد أبو موسى / الطبعة الأولى / مكتبة وهبة / ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

• المفضليات .

• المقامات للحريري (أبي القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري (ت٥١٠) / الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م .

- مقدمة كتاب الجمل في النحو لعبد القاهر الجرجاني / ت : يسري عبد الغني عبد الله / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي / ت : محمد حسين شمس الدين / الطبعة الأولى / دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .
- نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني / د: محمود توفيق محمد سعد / ٥٦ بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية / العدد العشرون / ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .
- نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر ت (٢٦٠) / ص : ٨٣/ ت : محمد عبد المنعم خفاجي / طبعة دار الكتب المصرية ـ بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة .	
البديع قبل عبد القاهر .	
من ألوان البديع عند المتقدمين .	
من خصائص البديع عند الجاهليين .	
البديع في عصر الإمام عبد القاهر .	
البديع عند الإمام عبد القاهر .	
من أصول البحث عند الإمام عبد القاهر .	
لفظ البديع في قاموس عبد القاهر .	
البديع بمعنى الغريب .	
البديع بمعنى المخترع على غير مثال سابق .	
لفظ البديع يشمل فنون البلاغة عند الإمام .	
لفظ البديع يقصد به علم البديع وفنونه .	
التكلف ليس قاصراً عند الإمام على الإسراف بل يشمل ترك البديع عندما يتطلبه المقام .	
الإمام لا يعارض صنعة البديع ولكن بشروط .	
الأمور التي أشار إليها الإمام، والتي يجب أن تتوافر عند تعاطي فنون البديع .	

ألوان من البديع تحدث عنها الإمام .	
الجناس .	
أنواع من الجناس تحدث عنها الإمام .	
جناس الحرف الواحد (جناس لم يثغر بعد)	
حديث الإمام عبد القاهر عن السجع .	
حديث الإمام عن الحشو (الاعتراض) .	
حديث الإمام عن التطبيق أو الطباق .	
حديث الإمام عن حسن التعليل .	
حديث الإمام عن التجريد .	
حديث الإمام عن المزاوجة .	
حديث الإمام عن التقسيم .	
من ألوان البديع في تطبيقات الإمام عبد القاهر.	
السجع في كلام الإمام عبد القاهر .	
التصريع، والمبالغة .	
نظرية الإمام عبد القاهر في البديع .	
الخاتمة .	
فهرس المراجع .	
فهرس الموضوعات .	